مكتبة إحسان عبد القدوس الكاملة

أين عمري

إحسان عبد القدوس

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ ش الصحافة القاهرة
تليفون وفاكس: ٥٧٩٠٩٣٠

□□ ان العمر لا يحتسب بالسنين، ولكنه يحتسب بالاحساس.. فقد تكون فى الستين وتحس انك فى العشرين، وقد تكون فى العشرين وتحس انك فى الستين!!

«احسان»

شارع «رمسيس» بضاحية مصر الجديدة.

وخرج الخادم النوبى من باب «الفيلا» الانيقة، واخذ يدير عينيه فى الشارع الهادئ، الصامت، وقد بدأت نسائم العصر الطرية تعزف على الاغصان لحن الغروب، وتزف يوما آخر إلى ليل آخر.

وقطب الخادم ما بين حاجبيه، وتمتم ببعض الفاظ لم يحاول هو نفسه ان يضع لها معنى، ثم ضرب الهواء بقبضته كأنه يعلن تمرده على الدنيا وعلى القدر، ثم جذب من صدره نفسا عميقا أعلن به استسلامه للدنيا وللقدر.. ثم سار بخطى واسعة حتى وصل إلى شارع «البارون».. الشارع الذى لا تمل القلوب جوانبه، ولا يعرف العشاق له نهاية إلا اذا اصطدموا بعسكرى البوليس!

واسرع الخادم فى خطاه وهو يبحث بعينيه فى الشارع الطويل المنبسط امامه.. ثم اخذ يعدو عدوا خفيفا وشفتاه الغليظتان تخبطان احداهما بالاخرى، كأنهما «صاجات» بائع العرقسوس، ويخرج من بينهما هذه الالفاظ التى لا يحاول هو نفسه أن يضع لها معنى.

الإخـــراج الفـــنى :
أحــمــد الســعــيـد
الغلاف بريشة الفنان :
عــمــرو فــهــمى

إلى ان لمحها من بعيد تتأرجح فوق دراجتها.

وبدأ يعدو بكل قواه وقد أمسك طرف «قفطانه» الابيض بيد، واخذ يلوح باليد الاخرى فى الهواء، وهو يصرخ:

يا ست عليه.. يا عليه هانم!

والتفتت عليّه إلى مصدر الصوت، وقد تهدلت خصلة من شعرها الذهبى فوق جبينها، وعندما لمحته ضحكت ضحكة تجمع فيها صباها وقلبها الخالى، ثم ادارت رأسها عنه، ومالت فوق دراجتها واعملت فيها ساقيها بكل ما لهما من قوة.. واخذت تبتعد عنه وهى تلتفت إليه بين الحين والحين وتضحك ضحكتها التى تجمع بين صباها وقلبها الخالى.

واستمر الخادم النوبى يعدو وراءها وهو يناديها ويلوح بذراعه، إلى ان تقطعت انفاسه، فوقف، ثم جلس على الرصيف وقد وضع يده على صدره كأنه يخشى على ضلوعه من ان تحطمها رئتاه الثائرتان.. واخذ يتمتم وقد احنى رأسه وتدلى منه لسانه اللاهث:

حرام عليك يا ست عليّه.. ده موش كلام يا ست هانم!

وفجأة قفز من فوق الرصيف وهو يصرخ فزعا:

يا سيدى عبدالرسول!

كانت عليّه قد عادت إليه فوق دراجتها، واتجهت نحوه باقصى سرعتها حتى كادت تدهمه لولا ان انحرفت عنه فى اللحظة الأخيرة.. واغرقت عليّه فى الضحك.

وغضب الخادم النوبى واخذ يزمجر قائلا:

اسمع يا ست هانم، انا ما احبش الهزار بتاعك ده.. كفاية

قطعت نفسى.. ياللا اتفضل على البيت، الست الكبيرة عايزك حالا!

وتركته عليّه وهى تضحك، واتجهت إلى البيت وهى تداعب باصابعها اجراس دراجتها، بينما عادت الابتسامة إلى شفتى الخادم النوبى، وقال من بين اسنانه البيضاء اللامعة:

يا سلام على دى ست.. ربنا يخليه يا رب!

ودخلت عليّه إلى حديقة الدار وهى لا تزال تتأرجح فوق دراجتها، ثم قذفت الدراجة فوق حاجز السلم الكبير، وصعدت الدرجات اثنتين اثنتين كأنها غزال انتشى بشبابه وغره صحو الربيع، أو كأن الصبا قد ضج فى عروقها حتى لم تعد تطيق ان تستقر على الارض!

ورفعت صوتها بمجرد ان وجدت نفسها داخل البيت:

مامى.. مامى!

واخذت تفتح كل الابواب التى تصادفها وتصرخ فى كل حجرة: «مامى.. مامى» وكانت هذه هى عادتها كلما دخلت البيت، رغم انها تعلم دائما اين تجد امها.. فى هذه الحجرة الصغيرة المطلة على الحديقة، والتى تمتاز عن حجرات البيت كله بهدوئها وبساطة اثاثها، وبالصور الفوتوغرافية الكثيرة المعلقة فوق جدرانها، تتوسطها صورة كبيرة بالزيت لرجل وقور مسن جلل الشيب رأسه.. كان يوما رجل البيت قبل ان يتوفاه الله.

وكانت الأم شابة لا تتجاوز الخامسة والثلاثين، اخذت عنها ابنتها بياض بشرتها المشرب بحمرة خفيفة كأنها قطرات من نهر الشباب سكبتها يد الله فى تمثال عبقرى من المرمر،

واخذت عنها شعرها الذهبى الغزير الذى تجمعه فى ضفيرة تلفها فوق رأسها وكأنها جمعت ثروة الدنيا كلها وصهرتها فى سبيكة واحدة، واخذت عنها عينيها اللتين تجمعت فيهما كل الالوان حتى تحتار خلالهما بين الازرق والاخضر والرمادى والعسلى، واخذت عنها شفتيها ووجنتيها وقوامها الممشوق الملفوف المكتنز فى غير سمنة.

كانت عليّه صورة منقولة عن امها. ولكن الأم كانت تعيش دائما وراء غلالة قاتمة من الحزن الصامت، حتى تبدو بين اهدابها دائما آثار دموع لم تنسكب، ويبدو على وجهها ملامح الجد كأنها مقدمة دائما على امر خطير، أو كأنها تركت وراءها أمرا خطيرا وحتى لا يذكر احد انه رآها مرة تضحك ضحكة كبيرة طليقة، انما كانت غاية ما تستطيعه ان تبتسم ابتسامة خفيفة لا تكشف عن اسنانها.. وكانت دقيقة فى اختلاطها بالناس، لا تزور احدا إلا بحساب، ولا تستقبل احدا إلا بحساب، ولكن شخصيتها كانت دائما فى كل مجال، فالذين يعرفونها كانوا يتباهون بها، والذين لا يعرفونها كانوا يتمنون ان يعرفوها.. والجميع يحترمونها فلم يتناقل عنها احد كلمة سوء.. ولم يؤخذ عليها ابدا مظهر مشين يجمعها بباقى سيدات الطبقة الثرية اللاتى يتناقل سيرتهن الناس.

ولم يكن احد يعرف سر هذه الغلالة القاتمة التى تعيش وراءها، ولا سر هذا الحزن الصامت الذى يحيط بها.. فقد كانت دائما هكذا.. منذ ان يتذكر الناس انهم رأوها، وربما نسب البعض هذا الحزن وهذا الجد الى نوع من الكبر والتعالى يرجع إلى اصلها الشركسى، ولكنها لم تكن متكبرة

ولا متعالية، ولم تكن تتباهى ابدا بأصلها الشركسى.

ثم لما مات عنها زوجها، لم يتغير فيها شىء، ولم يبد ان الصدمة قد اقتلعت منها شيئا، ولا يتذكر احد انه رآها يوم الوفاة تنهار أو تصرخ أو «تتحدف» فوق نعش الراحل.. كل ما حدث هو ان الغلالة القاتمة قد ازدادت قتوما، وان الحزن الصامت قد ازداد صمتا.. ثم ازداد حرصها فى اختلاطها بالناس، واعتكفت معظم ايامها فى حجرتها الصغيرة الهادئة المطلة من الحديقة، تطلق ذهنها طويلا فيما لا يدريه احد، ثم تنتبه لتدير الثروة العريضة التى تركها لها زوجها.

ولابد ان الزوج قد ترك وراءه ثروة عريضة.. ولكن احدا لم يكن يدرى مدى هذه الثروة، ولا ما حدث لها بعد الوفاة، ولا كيف كانت تديرها الأم الشابة.. انما الواضح امام الناس ان شيئا من مظاهر هذا الثراء لم يتغير.. فالبيت الكبير لا يزال كما هو، وعدد الخدم كما هو، والسيارة الكبيرة لا تزال تنتظر امام الباب، وقد زاد عليها سيارة صغيرة اشترتها الأم لابنها عادل الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة.

وكان عادل صورة عن أبيه، اسمر اللون، طويل القامة، مفتول العضل.. ولكنه اخذ عن امه صمته ومظهر الجد الذى يبدو على وجهه، ويبدو به اكبر من سنه.. وكان محبوبا محترما من «شلة» شبان مصر الجديدة وهى «شلة» لم تكن تحترم احدا ولا تضع لعبثها حدا، ولا ترحم فتاة تمر بها، بل ان افرادها كانوا يسرقون السيارات ويخطفون حقائب السيدات لا للسرقة نفسها ولا للحاجة إليها، انما لمجرد الشقاوة والتباهى بتقليد العصابات الاميركية التى تمثلها افلام السينما.. ولكنهم

كانوا جميعا يحترمون عادل، ربما لقوته وتفوقه فى الالعاب الرياضية، وربما لجده وصرامته، وربما لترفعه عن الاشتراك فى عبثهم.. وكانوا يحترمون اخته عليّه من أجله.

وكانت عليّه فى الخامسة عشرة من عمرها يزيد عليها بضعة شهور.. وكانت الضحكة الوحيدة فى هذا البيت الكبير، والضجة الوحيدة التى تثور فيه، والصوت الوحيد الذى يبعث فيه المرح والحياة والشباب.. كانت هى التى تملأ البيت بصديقاتها وهى التى تتحدث دائما فى التليفون، وهى التى تخلق المشاكل مع السفرجى والطباخ والسائق، وهى التى تحل هذه المشاكل.. كانت تتكلم دائما وتضحك دائما، وتستطيع بحيويتها ان تقنع اخاها ان يصحبها إلى حمام السباحة وإلى السينما، وكانت مجنونة بركوب الدراجات.

وقد احبها الجميع حتى لا يطيقون البيت بدونها.. احبوا فيها طيبة القلب، وروعة الصبا، وسرعة الخاطر، وطهارة الخلق.. وافسحت لها امها مجالا واسعا تطلق فيه صباها وحيويتها، ولكنها كانت دائما تحت رقابتها، ودائما فى حمايتها.. وكانت عليّه تعتبر هذه الرقابة امرا طبيعيا فلم تحاول ابدا ان تخفى عن امها شيئا، وكانت تعتبر هذه الحماية امرا لابد منه لا تستطيع ان تعيش بدونه، فلم تحاول ابدا ان تثور على حماية امها أو تبتعد عنها.

كانت تعبد امها وشقيقها.. وتؤمن بكل ما يريد انه لها وكل ما يريدانه منها.

وفتحت عليّه باب الحجرة الصغيرة، وصاحت كما كانت تصيح منذ دخلت البيت:

مامى.. مامى!!

واستقبلتها امها واقفة فى منتصف الحجرة، قائلة وهى تمد ذراعيها إليها:

اهلا بالعروسة!

ولم تنتبه إلى لفظ «العروسة» بقدر ما تعجبت لأمها وهى تضمها إلى صدرها وتمسح بيدها على شعرها، فلم تكن من عادة امها ان تضمها هكذا أو تمسح بيدها على شعرها، أو تقبلها إلا فى المناسبات.. كان حنانها حنانا قويا لا يضعف ولا يلين امام هذه المظاهر.. حنانا تستطيع ان تحتمى به وانت واثق انه لن ينهار فوقك!

وربما احست عليّه وهى بين ذراعى امها، بقلب الأم وهو يضرب ضربات حزينة كنقرات دف فى يد ضعيفة انهكها الحزن، وربما أحست كأن دموعا تتساقط فى صدر الأم الشابة كقطرات الندى التى تنبىء بيوم مطير.. ولكنها عندما رفعت عينيها إليها لم تر سوى ابتسامة من هذه الابتسامات النادرة التى تزور شفتى الأم بين الحين والحين.

وقالت عليّه متسائلة:

خير يا ماما؟!

وقالت الأم وكأن الكلمات ترتبك فوق لسانها:

خير يا عليّه.. بس انا ما كنتش واخدة بالى انك كبرت كده!

وضحكت عليّه:

ده أنا كبرت من زمان.. ومن زمان باحاول اقنعك انى كبرت ومن حقى البس كعب عالى!

وكأن الكلمات ازدادت ارتباكا فوق لسان الأم، فقالت:

بس ما كنتش عارفة انك كبرت لدرجة انك تتخطبى ويجيلك عريس!

وصرخت عليّه فرحة وكأنها فوجئت بثوب جديد:

اتخطبت! صحيح يا ماما اتخطبت!

ايوه.. عزيز بك بيكلمنى عنك بقاله شهر وزيادة!

أونكل عزيز؟!

ولا اونكل ولا حاجة.. روحى دلوقت خدى حمامك والبسى الفستان الروز الجديد علشان تستقبلى معايا الضيوف اللى جايين.

ولم تفكر عليّه طويلا فى عزيز بك الذى جاء إليها خاطبا، أو «أونكل عزيز» كما اعتادت ان تدعوه منذ عرفته صديقا للمرحوم والدها، وانما استقر فى ذهنها شىء واحد، هو انها قد خطبت.

واتسعت ابتسامتها، وارتسمت على وجهها صور من الفرح الصبيانى البرىء، واخذت تنساق وراء خيال واسع.. كيف ستبلغ النبأ إلى صديقاتها.. وكيف ستحتفل باعلان الخطبة، وتصورت الخاتم المقدس فى اصبعها، وتصورت الثياب الجديدة التى ستغمرها، وربما استعادت بخيالها الافلام السينمائية التى شهدتها والتى اعلنت فيها خطبة البطلة إلى البطل، ثم اطمأنت إلى انه سيكون من حقها أن تضع فى قدميها حذاء ذا كعب عال، ثم ضحكت بصوت مسموع وهى تتخيل وقع المفاجأة على صديقتها ليلى.

وخرجت من الغرفة تحجل فوق قدم واحدة وتهز رأسها

يسرة ويمنة فى دلال الصبا، وخيالها يرفرف حولها.

وسمعت صوت الأم من ورائها حاسما معاتبا:

امشى كويس يا عليّه.. احنا اتفقنا انك خلاص كبرت!

واعتدلت فى مشيتها دون ان تفقد ابتسامتها واتجهت إلى غرفتها وبدأت تخلع ثيابها استعدادا لدخول الحمام، ثم توقفت وتسللت خارج الغرفة إلى حيث آلة التليفون وعادت بها، وبدأت تدير رقم صديقتها ليلى.

وعندما سمعت صوت صديقتها سحبت ابتسامتها تظاهرت بمظهر الجد:

أنا آسفة يا ليلى، مش حاقدر اكلمك النهارده.. مشغولة قوى!

- ....

- عندنا ضيوف مهمين خالص..

- ....

اصلى اتخطبت.. عقبالك!

وسمعت صرخة المفاجأة من صديقتها ليلى، فوضعت كفها على شفتيها حتى لا تنفجر ضاحكة، ثم قالت كأنها جد مشغولة:

بعدين اقولك!

وقامت تدخل الحمام وهى تغنى أغنية فرنسية مشهورة:

«انى انتظرك صباحا ومساء..»

«انتظر دائما عودتك..»

«انتظرك كما تنتظر الطيور الصغيرة فى عشها..»

ولم يكن لهذه الاغنية وقع فى قلبها ولا صلة بخيالها ولم يكن لأى أغنية هذا الوقع، انما كانت تغنى ما تسمعه من الاغانى، دون ان يكون لغنائها اثر يتعدى شفتيها واذنيها. ولا معنى ابعد من معنى الموسيقى المجردة.. كان قلبها خاليا كصفحة النور، وكان خيالها انقى من انفاس الملائكة.

حتى هذه النزعات العاطفية البريئة التى تخط على قلوب الفتيات فى مثل سنها، لم يكن لها منها نصيب، ولا سابق تجربة.. فلم تكن تعى شيئا من نظرات الاعجاب التى يلاحقها بها الفتيان وهى تتأرجح فوق دراجتها، ولم تكن تلقى بالا إلى كلمة ذات معنى يتقرب بها فتى إليها، ولم يثر فيها يوما احساس بانوثتها، الا ما تقتضيه الانوثة من الوقوف امام المرآة بين حين وآخر، وما تدفعها إليه غريزة التقليد من التشبه بواحدة من ممثلات السينما أو بأخرى.

كانت الصبا نقيا طاهرا بريئا.

حتى عندما دخلت الحمام ووقفت امام مرآته عارية.. لم تع شيئا من اسرار فتنتها، ولم يتجه ذهنها إلى الرجل الذى ستبيح له كل هذه الاسرار، وتهبه هذه الفتنة.. كل ما انتبهت إليه هو اثر الكدمات العالقة بساقيها لكثرة ما سقطت من فوق دراجتها فأخذت تعالجها باظافرها وهى لا تزال هائمة فى خيالها تستعرض صور زميلاتها وصديقاتها وكيف ستتباهى عليهن بخطبتها.

وخرجت من الحمام لترتدى ثوبها الوردى الجديد.. واهتمت اكثر من المعتاد بزينتها وتصفيف شعرها، ولم يكن اهتمامها لتبدو جميلة بل كان كل ما تحرص عليه هو ان تبدو اكبر من

سنها واكبر من صباها، وتمنت لو سمحت لها امها بأن تضع بعض الطلاء على شفتيها، ثم ابتسمت وهى تمنى نفسها بكل انواع الطلاء عقب اعلان خطبتها، ثم عادت وسحبت ابتسامتها عندما امسكت فى يدها بحذائها ذى الكعب القصير - أو المتوسط الطول - لتضعه فى قدمها، وعبس وجهها وضمت شفتيها حتى اصبحتا كحبة الكريز الطيبة، وهمت ان تلقى بالحذاء من النافذة.. ولكنها تنهدت كأنها تستعين بالصبر على مصائب الزمن، ووضعت الحذاء فى قدميها!

وسارت بجانب امها إلى الصالون الكبير لتستقبل الضيوف، وحرصت فى مشيتها على ان تقلد السيدات الكبار، حتى بدت لمن يعرفها مثيرة للضحك.

وكان الضيوف: عزيز بك وشقيقته.

رجل فى الخمسين من عمره، طويل القامة عريض المنكبين، متسق تقاطيع الوجه، يكاد يكون مثلا من امثلة الشباب القوى، لولا هذه الشعيرات البيضاء التى تزحف كعاصفة من الايام فوق فوديه، ولولا هذه التجاعيد التى تتوارى تحت عينيه وكأنها تشفق عليه من ان تفضحه.

وكان حلو الشخصية، يمرح فى وقار، ويتوقر فى مرح، وكان حلو الحديث يستطيع ان يقنعك دون ان يكلفك مشقة المجادلة، ويستطيع ان يجذب إليه كل الآذان فى كل مجال يضمه، وكان معتدا بنفسه، معتدا بذكائه وكفاءته وممارسته للحياة، حتى ليفرض شخصيته عليك متسلل بها إلى قلبك، فلا تشعر إلا وقد اتخذت منه صديقا تعتمد عليه وتفخر بصداقته - وهو ناجح، نجح فى ادارة مزارعه التى ورثها عن أبيه، ونجح

فى الحكومة حتى وصل إلى منصب وكيل وزارة، ثم نجح عقب ان استقال من الحكومة وأصبح مديرا لاحدى الشركات الكبرى.. وهو يعد قوى الخلق، لم تعرف عنه صفة لا تمتدح فيه، ولم يؤخذ عليه تبذل أو اسفاف، بل هو اقرب إلى القوم المحافظين على التقاليد وعلى سنن الآباء، ولكنه فى تحفظه لا يتزمت ولا يبدو ثقيل الدم.

انه شيخ كامل، لو اردت ان تحتسب عمره بالسنين فتسميه شيخا، أو هو رجل كامل ان اكتفيت منه بمظاهر الرجولة القوية الفتية.

ولا يدرى احد مدى ما كانت عليه علاقته برب البيت قبل ان يموت، ولا مدى ما أصبحت عليه علاقته بالأم بعد ان مات عنها زوجها.. ولكن الظاهر انه كان يتردد على البيت كثيرا قبل ان يموت الزوج، واتصل تردده على البيت بعد ان مات.

وربما اشترك مع الأم فى ادارة الثروة التى تركها لها زوجها، وربما كانت هذه الثروة قد تعرضت لازمات وتشعبت فيها العقبات، فساهم بنصيب كبير أو بالنصيب كله فى تذليل هذه الازمات والعقبات.. ولكن احدا لم يعترض على تردده على البيت بعد وفاة الزوج، وهو من عرفت عنه حسن السيرة، كما ان احدا لم يعترض على الأم لاستقباله فى بيتها وهى من عرف عنها الصلابة والحزم وطهارة النفس.

ولكن المفاجأة كانت فى ان يتقدم خاطبا الابنة، ولو انه جاء خاطبا الأم لما كانت مفاجأة.

وربما كان الانسان الوحيد الذى لم يشعر بالمفاجأة ولا بسبب يدعو لها هى عليّه نفسها.. ان المفاجأة كانت بالنسبة

لها محصورة فى انها قد خطبت، اما شخص الذى جاءها خاطبا فلم يثر فيها شعور المفاجأة ولو جاءها غيره لما اختلف شعورها.

واحست عليّه ببعض الارتباك وهى تستقبل الضيوف مع امها، واصطبغت وجنتاها بلون الورد وهى تمد يدها إليهم مصافحة، فتقول لها شقيقة عزيز الأولى: «ما شاء الله.. سبحان الوهاب!» وتضمها الشقيقة الثانية إلى صدرها وتقبلها قائلة: «ربنا يمتعك بجمالك وشبابك!» ولم تجد عليّه ما ترد به إلا كلمة «مرسى» ثم جلست صامتة.

واخذ عزيز يتحدث، ووجدت نفسها تنساق معه فى حديثه كعادتها منذ كانت طفلة.. وشمل الحديث كل موضوع مصايف اوروبا ومشاتيها، والافلام السينمائية، والناس، والثياب، والذكريات، حتى موضوع الخدم.. إلا موضوعا واحدا هو: الخطبة.. وكأن هذا الموضوع قد انتهى امره، وتقرر منذ امد بعيد.

وكانت الأم خلال الحديث لا تتكلم كعادتها إلا بحساب، وربما اخذت تنقل عينيها بين ابنتها وبين عزيز، وربما فكرت طويلا فى الفارق الكبير بين صبا الخامسة عشرة وكهولة الخمسين، ولكن شيئا من تفكيرها لم يبد على وجهها، ولم يزد عليها من تعبير إلا هذه الابتسامة التى لا تبين عن اسنانها.

وانصرف الضيوف..

وخلت الأم بابنتها فترة تسألها:

- ما قلتيش رأيك أيه؟

وقالت عليّه فى سذاجة كأن لم يخطر على حياتها شىء

يستحق ان يؤخذ رأيها فيه:

- فى اية؟!

- فى عزيز.. لازم اعرف رأيك فيه ده حيبقى جوزك، وانت لازم اللى تختاريه.

- هو مش خطبنى خلاص؟

- ايوه..

- وانت وافقتى..

- المهم موافقتك انت!

والقت عليّه بنفسها فوق صدر امها، وقالت فى حنان مرح:

- المهم انت يا ماما..

- دول عايزين يلبسوك الدبلة بعد ثلاثة أيام..

- وحنعمل حفلة؟!

وربتت الأم على ظهر ابنتها فى عطف كبير وكأنها تشفق عليها من سذاجتها:

- الحفلة الكبيرة فى كتب الكتاب باذن الله!

- طيب.. ومش حاعمل فستان؟!

- طبعا يا حبيبتى.. اللى انت عايزاه..

- وحالبس جزمة بتالون عالى؟!

- بس مش عالى قوى..

والقت علية بنفسها مرة ثانية فى صدر امها، وهى تصيح مهللة:

- ربنا يخليكى لى يا ماما..

ثم ابتعدت عن امها قائلة:

- حاعمل جزمة فرنيه سودة.. اما شفت حتة موديل فى مجلة «فوج» جنان!

وقامت عليّه إلى غرفتها، وهى تكاد تطير من فرحتها، وخلعت ثوبها بسرعة، أو على الاصح نزعته عن جسدها نزعا، وامسكت بمجلة «فوج» والقت بنفسها فى فراشها واخذت تقلب الصفحات، ثم قلبت شفتيها امتعاضا عندما مرت بصفحات ازياء الفتيات الصغيرات، ثم توقفت عند صفحات السيدات الكبار.. ونامت وبين عينيها ثوب من ثياب العرس.

□□□

وكان أول ما فعلته فى صباحها ان حادثت صديقتها ليلى بالتليفون لتروى لها ما حدث وما سيحدث وما تنوى ان تشتريه وما تنوى ان تعمله.. وكانت ليلى بدورها قد بلّغت النبأ الذى تلقته بالأمس إلى بقية الصديقات، فأخذت تروى وقعه على كل منهن.. وربما كانت ليلى قد سمعت من بعض هؤلاء الصديقات أو من امها ان «العريس راجل كبير» ولكنها لم تقل شيئا لعليّه ولم يدر بينهما الحديث حول العريس بقدر ما دار حول المشتريات!

وصرخت ليلى فى التليفون كأنها تذكرت شيئا:

- عن اذنك بأه احسن ميعاد المدرسة جه!

وقالت عليّه فى لهجة تحاول ان تبدو بها سيدة كبيرة:

- انت لسه بتروحى المدرسة.. فكرتينى بأيام زمان!

وكان هذا هو اليوم الأول الذى تنقطع فيه عليّه عن المدرسة!

وانشـغلت بعـد ذلك ثلاثة أيام فى اعـداد الثـوب الجـديد، والطواف بالحوانيت.. دائما بصحبة امها.. ووقفت فى اليوم الثالث تتزين امام المرآة استعدادا لاعلان الخطبة، وقد التف حولها صديقاتها وبعض سيدات صغيرات ممن سبقنها فى الزواج ويكبرنها سنا.. والجميع يحاولن ان يساعدنها فى زينتها.. وكانت سعيدة بهؤلاء الشابات اللاتى يكبرنها سنا اكثر من سعادتها بصديقاتها.. وكانت تميل اليهن.. وتحاول ان تشاركهن فى تفكيرهن وفى حديثهن، مبتعدة عن صديقاتها، ناظرة اليهن ـ دون تعمد ـ كأنهن لا زلن صغيرات لا يؤتمن على اسرار النساء واسرار زينتهن!

وخرجت إلى المدعوين، ولم يزد شىء عليها إلا هذا الطلاء الخفيف فوق شفتيها، وهذا الحذاء ذو الكعب العالى فى قدميها، وهذه التصفيفة التى جنى بها الحلاق على شعرها فافسد استرساله وبراءته.

وكان الحفل مقصورا على تناول الشاى، والمدعوون لا يتعدون افراد الاسرتين.. ووضع عزيز فى اصبعها خاتم الخطبة ووضع فوقه خاتما ذا فص كبير من الماس شع بريقه بين العيون فشهقت الصدور لروعته وسخائه.

وضغط عزيز على يدها الصغيرة فى رفق وكأنه يخشى ان يدميها بيده، ثم انحنى يلمسها بشفتيه فى قبلة عابرة حتى كأنه قبّل يدها بانفاسه لا بشفتيه.

ولم تأبه عليّه بيده وهى تضغط على يدها برفق، ولا شعرت به وهو ينحنى ليقبل هذه اليد، انما ظلت ترقب الخاتم الكبير متهللة الوجه. كأنها طفلة ترقب فى دهشة لعبة جديدة اتوا لها

بها فى عيد ميلادها.

واقتربت منها أمها تحيط بها غلالتها القاتمة الحزينة، وقبلتها فى جبينها بشفتين باردتين، وكأنها استنزفت كل ما فيهما من حرارة لتحرق بها دموعا لا تريد لها ان تنهمر.

وجاء شقيقها يقبلها وينظر إليها بعينين صامتين ولا يزيد عن كلمة «مبروك».

ثم توالت المدعوات يقبلنها وكل منهن تنافس الاخرى فى اختيار كلمة تعلن بها عن فرحتها، وتخفى بها حسدها ان كانت حاسدة، أو تخفى بها شفقتها ان كانت مشفقة.

وانطلقت زغرودة واحدة يتيمة تؤذن باعلان الخطبة، فلم يكن أهل البيت ممن يؤمنون بالزغاريد أو يرحبون بها.. انما هى خادمة ارادت ان تشارك المدعوين فرحهم على طريقتها الخاصة.

وانصرف المدعوون إلى موائد الشاى، ثم انصرفوا إلى حالهم، ودعا عزيز خطيبته وامها وشقيقها إلى تناول العشاء فى فندق شبرد.

ثم...

مرت أربعة شهور كانت فترة انتقال واسعة فى حياة عليّه.. لم يتغير خلالها شىء من سذاجتها، ولم تتفتح عيناها المغمضتان على جديد، ولم تنضج انوثتها ولا دب فيها احساس بهذه الانوثة.. ظلت كما هى نقية بريئة طاهرة يفضحها الصبا كلما حاولت ان تخفيه تحت كعب حذائها العالى، أو تحت الطلاء الوردى الذى تصبغ به شفتيها.. ولكنها فى خلال هذه الشهور الاربعة كانت كمن تمثل دورا على

خشبة مسرح.. دور فتاة ناضجة عرفت الدنيا وفتحت ابوابها.. دورا ليس لها، وشخصية اضخم من صباها ومن سذاجتها.

اصبحت دائما مع امها تطوف بالمحال التجارية لانتقاء اثاث بيتها الجديد، وتطوف بالبيوت تبحث عن بيت للايجار، وتستقبل الخياطات وعارضى المجوهرات والمهنئات.. ثم تقضى بقية يومها تقلب فى صحف الازياء.

وكانت لا تخلو من صحبة امها، الا لتجلس مع سيدات فى عمر امها أو يزيد، فتحاول ان تقلدهن فى حديثهن، وفى حركاتهن، وفى ضحكاتهن، وفى طريقة تفكيرهن.

وهى فى كل ذلك ابتعدت عن صباها الجميل.. ابتعدت عن عمرها.. لولا هذه اللفتات الصبية التى تطرا عليها بين حين وحين دون وعى منها.

لم تعد تركب الدراجات.. وظنت ان شخصيتها الجديدة تحتم عليها ان تتعالى على كل فتاة تركب دراجة، وان تنظر اليها من نافذة السيارة الكبيرة وهى بجوار امها، كما تنظر إلى طفلة ليست من عمرها وليست هى فى صباها.

ولم تعد تشاكس السفرجى والطباخ والسائق.. ولم تعد تملأ البيت ضجيجا.. انما اخذت تقلد امها فى وقارها وفى صمتها وتحاول ان تلف نفسها بهذه الغلالة الحزينة الوقورة.

ووجدت نفسها تبتعد شيئا فشيئا عن صديقاتها وزميلاتها فى المدرسة، حتى صديقتها ليلى التى كانت دائما موضع سرها البرىء، اصبحت تخفى عنها اسرارها، وكأنها اعتبرتها اصغر عمرا من ان تصون سرا، وأصبحت تعاملها بشىء من التكلف، وشىء من التعالى، وتفتعل معها نوعا من الحنان اشبه

بحنان الامهات، حتى انها ربتت على خدها يوما قائلة تحييها:

«ازيك يا حبيبتى.. وازى ماما»!

وشعرت ليلى ان صديقتها قد انتقلت إلى دنيا اخرى لا تستطيع ان تدخلها، فابتعدت بدورها عنها.

وكانت علية فرحة بتمثيل هذا الدور على مسرح عمرها، فرحة بالاندماج فى هذه الشخصية الجديدة، وكانت فرحتها الكبرى يوم وضعت على رأسها أول قبعة من قبعات السيدات، وظنت يومها انها أصبحت فعلا سيدة!

إلى ان مرت الشهور الاربعة، واكتملت بها السادسة عشرة من عمرها فاقيمت حفلة كبرى احتفالا بعيد ميلادها، واحتفالا بكتب الكتاب، واحتفالا بالزفاف.

ودعى مئات من الاصدقاء والصديقات.

وجاء عبدالوهاب ليغنى، وتحية كاريوكا لترقص، وفرقة من العوالم لتزف العروسين.

وانهمكت علية بكليتها فى الاستعداد لهذا اليوم الموعود، وكانت كل ما تعده اما منقولا عن افلام السينما أو عن المجلات الاجنبية.

إلى ان ارتدت ثوب العرس، وجلست بجانب العريس فى الكوشة.. ولم تحس بالعريس، ولا التفتت إليه بقدر التفاتها إلى ثوبها، وبقدر تعمدها ان تقلد فى جلستها وفى مشيتها، وفى كل حركة من حركاتها، نجمة من نجوم السينما، أو تتبع نصيحة همست بها فى اذنيها احدى صديقاتها الكبار.

واحاطت بها فرحة المدعوين وتهانيهم، ولم تسمع شيئا من همساتهم وهم ينقلون النظر بين صباها وبين شيخوخة

العريس.

حتى عبدالوهاب همس فى اذن عازف القانون: «العروسة حلوه قوى يا وله.. بس صغيرة كمان قوى.. خسارة فى العجوز اللى قاعد جنبها».

وهمست تحية كاريوكا وهى تخبط على صدرها: «والنبى حرام عليهم.. دى وردة ولسه ما تفتحتش»!

ولم تفسد هذه الهمسات شيئا من بهجة الحفل، ولم توقف شيئا من اجراءات الزفاف.

إلى ان ركب العريس والعروس سيارة إلى فندق مينا هاوس ليقضيا اياما من شهر العسل.

وكان قد اعد لهما جناح.

ودخلا حجرة النوم ليلتقيا بمائدة انيقة تحمل زجاجة من الشمبانيا وكأسين.

ولم يكن عزيز يشرب الخمر أو يميل إليها، ولكنه ظن أن كأسا من الشمبانيا قد يكون لها دور كبير فى مثل هذه الليلة.

ولم تفاجأ علية بالزجاجة والكأسين، فقد رأت مثلها وفى مثل هذه المناسبة خلال احدى الافلام السينمائية.

وكانت تعرف ما سيحدث، وان كان ما تعرفه لا يتعدى صورة مهزوزة رسمها خيالها، وبعض ما سمعته من صديقاتها الكبار.. ولكنها كانت متأكدة انه سيقبلها، وكانت قد اعدت وضعا خاصا لهذه القبلة اقتبسته من الممثلة السينمائية انجريد برجمان.

وكانا يتحدثان عما تركاه وراءهما من حوادث الحفل، بينما

عزيزيعالج زجاجة الشمبانيا حتى انطلق غطاؤها فى صوت كانه صوت مدفع الافطار بعد صيام طويل.

وافرغ لها كأسا.

وافرغ لنفسه اخرى.

وقال وهو يرفع كأسه: «فى صحة زواجنا.. إلى الأبد»!

ونظرت إلى الكأس مبهورة، ثم اغمضت عينيها ورشفت رشفة من فوق حافتها، ثم ابعدتها لتنطلق منها «زغطة»!

وابتسم عزيز قائلا: خدى كمان شفطة!

ورشفت رشفة اخرى.

ومد عزيز يدا رقيقة حنونا وبدأ يرفع عن رأسها «طرحة» الزفاف.

ثم مد ذراعه واحاط كتفيها وضمها إلى صدره فى رفق..

واستراحت فوق صدره..

وخيل إليه انها قد أصبحت له..

وعندما نظر إليها.. كانت قد نامت..

نامت نوما عميقا.

وابتسم عزيز ابتسامة الخبير الصبور، ثم رفعها بكلتا ذراعيه ووضعها فى الفراش كابنة عزيزة.

(٢)

وأصبحت علية زوجة.

ولم تشعر بالتطور الكبير الذى ألم بها، انما اندمجت فى الدور الجديد الذى تمثله على مسرح عمرها اندماجا كليا، حتى كأن هذا الدور قد كتب لها، وكأنها لم تخلق إلا له.

وساعدها زوجها عزيز على هذا الاندماج، فابعد عنها فى رفق ودون ان تلمح تعمده جميع صديقاتها اللاتى فى مثل عمرها، واحاطها بصديقات جدد من سيدات عائلته أو من زوجات اصدقائه، وكلهن قد اجتزن مرحلة الشباب وتقدمن مترددات يطرقن ابواب الكهولة بايد لا تمتلك إلا الاستسلام.

وكان دائما معها، يصحبها إلى المجتمعات التى يسودها الوقار والاتزان، أو يصحبها إلى السينما، أو يطوفان سويا بالحوانيت لينتقى لها الثياب، ويشترى لها ادوات الزينة التى تحتاج إليها، وكان يتدخل فى كل شأن من شئونها ويطبعه بذوقه الخاص، حتى المجلات والكتب التى تقراها كان ينتقيها لها ويراعى فيها الا تشغل خيالها، أو تفتح عينيها عن دنيا لا يريدها لها.. فاذا ذهب إلى عمله حرص على ان يشغل وقتها كله حتى يعود إليها.. يشغله فى استقبال سيدات يختارهن لها، أو فى زيارات يحددها لها، أو فى اعداد وليمة، أو فى كتابة اوراق.

ولم يكن فى كل ذلك يبدو متعمدا أو آمرا، بل لم يكن يبدو كمن يستعمل حقوقه كزوج، انما كان يستغل لباقته وليونته وذكاءه ومرحه الوقور، حتى تنقاد له وحتى يخيل إليها انها تفعل ما تريده هى لا ما يريده هو.

وبعد شهور من الزواج بدأ يصحبها إلى «العزبة».

ومنذ عام واحد كانت تذهب إلى الريف فتطلق صباها بين الحقول، وتشارك الفلاحين حياتهم، وتصحب الفتيات فى موكب الغيد إلى حيث يملأن جرارهن، وتعود معهن لتجلس بجانب أم السعد امام الفرن الكبير تراقب اقراص العجين

وهى تدخل النار فى لون الشروق وتخرج منها فى لون الغروب، ثم تقفز من جانب الفرن لتمتطى حمارا، ثم تقفز من فوق الحمار لتتعلق بالنورج وتدور معه فوق اعواد الذهب المحصود، وتستمع إلى انينه وكأنه يشكو طول ما دار ليلحق بالابد، فلا الأبد انتهى ولا اعواد الذهب كف حصادها.. ثم كانت تلقى بنفسها من فوق النورج إلى اكوام «التبن» فتلهو بها، ثم تصرخ على بنات العزبة ليشاركنها لهوها، ثم تصحبهن جميعا إلى حديقة القصر الكبير لتجلسهن فى شبه مدرسة وتقلد امامهن دور المعلمة أو تقوم بهن وتلعب معهن «الحجلة».

كان كل ذلك يحدث منذ عام واحد..

اما اليوم فهى تذهب إلى العزبة فتغلق وراءها هى وزوجها ابواب القصر الكبير الذى تفصله عن بيوت الفلاحين افدنة من حدائق البرتقال والمانجو.. ولا ترى من جمال الريف إلا ارقاما يقدمها لها ناظر العزبة عن المحصولات والاسعار التى بيعت بها، ولا تجد ما تشغل به وقتها إلا ان تقيم هى وزوجها من نفسيهما محكمة تقضى فى مشاكل الفلاحين وتوقع عليهم العقوبات، فتطرد هذا من بيوت العزبة، وتستولى على بهائم ذاك، وتسلم الثالث إلى المركز.. ثم لا تخرج من القصر الكبير الا فى عربة «كارتة» وقد جلس بجانبها زوجها، وتبعهما نفر من الخفراء والخدم يلهثون وراء العربة ويروون آثار عجلاتها بقطرات من عرق جباههم، وخلفهم ناظر العزبة على حماره وقد فتح شمسيته فوق رأسه، وامسك بيده الاخرى عصاه وكأنه حارس العبيد يخشى ان يفر واحد منهم.. ويطوف هذا الموكب

تحيط به الابهة والسطوة فى ارجاء العزبة، يرقب الظهور المنكبة فوق الارض السوداء، ويشرف على السواعد التى ترتفع كأنها تستجير بالله، وتهوى كأنهايئست من رحمة الله.. ثم تعود مع زوجها إلى القصر الكبير وتستمع إليه وهو يلقى بملاحظاته التى جمعها فى يومه إلى الناظر الواقف امامه يحاول ان ينحنى فيرده بعض ما بقى من كبرياء، ويحاول ان ينتصب فيرده بعض ما يحتاج إليه من نفاق.

وقد اهتم عزيز بان يلقن زوجته اسرار ادارة العزبة والاشراف عليها.. فعلمها مواعيد الجنى والحصاد، وعلمها ما تحتاج إليه لزراعة القطن وزراعة القمح وزراعة البرسيم.. وعلمها كيف تعامل الفلاح وكيف تستعبده، ومتى تكرمه ومتى تذله، وكشف لها عن مواطن مكر هذا الفلاح وعن مواطن سذاجته.. واخذ يكل إليها اعمال العزبة شيئا فشيئا على مر الشهور حتى قامت بها كلها، فاذا بها تتقمص شخصية زوجها وتفوقه فى حزمه وفى قسوته، وفى ليونته عندما يحتاج الامر إلى ليونة، واذا بالفلاحين يحترمونها، ثم يخشونها، ثم يكرهونها.

وقد اغرمت عليّه بادارة العزبة حتى أصبحت تقضى فيها معظم شهور السنة، وأصبحت - وهى فى التاسعة عشرة من عمرها - تمسك بجريدة الاهرام كل صباح فلا تبحث عن «اين تذهب هذا المساء؟» ولا عن «برنامج الاذاعة» بل كانت تبحث أول ما تبحث عن «اسعار البورصة» فاذا ما انتهت منها ودرستها نقلت عينيها إلى اعمدة «الوفيات» وكأنها فى كل ذلك امرأة فى الاربعين من عمرها.

كانت تفكر كامرأة فى الاربعين.

وكانت تتكلم كامرأة فى الاربعين

وكانت تتجهم وتحد من نظرات عينيها كامرأة فى الاربعين.

بل أصبحت تنتقى ثيابها وتتزين بذوق امرأة فى الاربعين، وأصبحت تكثر من اقتناء المجوهرات الغالية وتكثر من التزين بها كامرأة فرغ منها الشباب ولم يعد لها ما تتعزى به الا المجوهرات!

لم يعد فيها من عمرها - عمر التاسعة عشرة - الا بشرتها النضرة وهذه الدماء الساخنة التى تطوف بوجنتيها ثم تتجمع فى شفتيها، وهذا الشعر الذى ترسله احيانا فينحدر فوق كتفيها كشلال من الذهب، يهدر فى همس ثم تنطلق منه شعرات فى الهواء كأنها تستغيث من الحرمان، وهذا القوام وقد نضج وشد بعضه بعضا حتى لكأن النهدين يحاولان تقبيل العنق، ولكأن الساقين فخورتان بحملهما هذين النهدين!

ولم يعد لها من ومضات عمرها، إلا هذه اللفتات التى تنطلق من عينيها احيانا كلما رأت فتى يراقص فتاة، أو كلما مرت فى شارع «البارون» بضاحية مصر الجديدة ولمحت مواكب العشاق، أو كلما رأت زوجة شابة سعيدة بزوجها الشاب.. وهى لفتات لم تكن تدرى لها سببا. لم تكن تدرى لماذا تطيل النظر اذا رأت هذا الفتى وهو يراقص هذه الفتاة، ولا لماذا تتعمد ان تطل بعينيها كلما رأت شابا يتأبط ذراع شابة فى حدائق شارع البارون ويخاطبها بشفتيه دون كلام.. لم تكن تدرى لذلك سببا، انما كانت تتنبه إلى نفسها فتدير عينيها وتعتدل فى جلستها، وتعود كما كانت وكأنها امرأة فى

الاربعين.

ولم تكن تعتقد ان هناك شيئا ينقصها وهى فى حالتها هذه، كان كل ما تريده تستطيعه مادام يشترى بالمال، وكان زوجها يحترمها ويقنعها دائما انها سيدة كل شىء.. ولم يكن هناك ما يضايقها إلا ساعة ان تخلو فى الليل لزوجها كزوجة.

كان عزيز زوجا رقيقا مهذبا، وكان دائما يبذل جهدا كبيرا حتى لا يصل إليها الا رقيقا مهذبا.. ولكن كل هذه الرقة وكل هذا التهذيب لم يستطع ان يجعل لقبلاته طعما ولا ان يثير فيها رغبة ولا ان يجعلها تشعر بانوثتها.. فكانت تسلمه دائما شفتين باردتين لا حياة فيهما، وتتحمله فوق صدرها وهى تحسب الثوانى ليقوم عنها.. وكان كل ذلك لا يعدو فى نظرها مجرد واجب من واجبات الزوجية اقنعت نفسها به، وكان يمكن ان يكون الزواج فى نظرها اروع واكمل بلا هذا الواجب!

وقد عودت نفسها على اداء هذا الواجب، أو على تحمله.. ولكنه كان يترك فى نفسها اثرا عميقا قاتما، ظل يتراكم فوق صدرها حتى أصبحت كأمها تعيش دائما وراء غلالة قاتمة من الصمت الحزين، وتبدو بين اهدابها دائما آثار دموع لم تنسكب، وتبدو على وجهها ملامح الجد كأنها مقدمة دائما على امر خطير أو كأنها تركت وراءها امرا خطيرا، وحتى لا يذكر احد انه رآها مرة تضحك ضحكة كبيرة طليقة، انما كانت غاية ما تستطيعه ان تبتسم ابتسامة خفيفة لا تكشف عن اسنانها.

□□□

ومرت السنون..

مرت اثنتا عشرة سنة منذ تم الزواج

واصبحت عليّه فى الثامنة والعشرين من عمرها..

واصبح زوجها فى الثانية والستين من عمره!

ومرض الزوج.. اصيب بتصلب فى الشرايين، ثم اصيب بذبحة صدرية لم ينج منها الا ليعيش فى ظلها الاسود بقية عمره!

ومنذ احس بالمرض، واحس بقواه تتسرب منه ولا يستطيع ان يردها، انقلب انسانا آخر.. لم يعد رقيقا، ولا مهذبا، ولم تعد له هذه الشخصية الحلوة، ولا هذا الحديث المسترسل المقنع.. أصبح ساخطا دائما، محتدا دائما، حقودا دائما، انانيا غيورا قاسيا فى انانيته وغيرته.. وصب كل ذلك، صب سخطه واحتداده وحقده وانانيته وغيرته على رأس زوجته عليّه.

ولم تكن عليّه نفسها هى التى تثير فيه هذه الاحاسيس السوداء، بل كان شبابها ونضارتها وقوتها على الحياة.

كان هذا الشباب كلما خطر امامه ذكره بشيخوخته الفانية.

وكانت هذه النضرة كلما اطلت عليه ذكرته بذبوله.

وكانت هذه القوة كلما مدت يدا اليه ذكرته بضعفه وهزاله.

كانت هى الحياة.

وكان هو الموت.

واجتمعت الحياة والموت فى بيت واحد، كل منهما يحاول ان ينتصر على الآخر، وكل منهما يحاول ان يجذب الآخر إليه..

الموت يحقد، والحياة تصفح.. الموت يقسو، والحياة ترحم!

وصمدت عليّه لانانية الزوج المريض الفانى، وقامت على رعايته بنفسها.. تناوله الدواء بيدها وتعد طعامه بنفسها،

وتقضى ليالى الازمات التى تنتابه جالسة على مقعد بجوار فراشه، تغفو ولا تنام.. ولكنها كانت فى رعايتها له حازمة كامرأة فى الاربعين، وكانت جادة فى حزمها.

كان اذا صرخ ساخطا حدجته بنظرة باردة اسكتته.

وكان اذا شكا من امر لا يستحق الشكوى، تركته يشكو دون ان ترد عليه، حتى يمل الشكوى فيسكت عنها مرغما وهو يرغى ويزيد.

وكان اذا افتعل التأوه ليثير حنانها، تركته يتأوه دون ان يصل إلى حنانها.

وكان احيانا يرفض ان يتناول الدواء، لا لشىء إلى ليثير مشكلة تثير الاهتمام به وبشأنه، فكانت تصب له الدواء، وتقربه من فمه وتنطق فى امر حازم وبصوت خافت وكأنها تأمره بعينيها:

اشرب!

وينظر إلى العينين الصامتتين، فينتابه احساس كأنه الخجل من نفسه، والاسف على ما بدر منه، وعلى تصرفه تصرف الاطفال.. ثم يشرب!

ثم بدأ - ولأول مرة - يحاسبها كلما غابت عنه:

كنت فين؟

وترد عليه بصوتها الخافت وكأنها دائما تتكلم بعينيها..

فى المطبخ

ويرتفع صوته:

ليه؟!.. طردتى الطباخ؟!

وترد فى برود:

لأ..

ويصرخ:

امال كنت بتعملى ايه فى المطبخ.. أنا لازم اعرف كل حاجة فى البيت ده.. انا لسه ما متش، لازم تعرفى انى لسه ما متش!!

ولا ترد عليه، انما تنحنى فوق فراشه لترتب وضع الوسادة تحت رأسه ثم تصل إلى المقعد الذى تعودت ان تجلس عليه، وتفتح صحيفة تتظاهر بقراءتها وتخفى بها وجهها عنه.

ويظل يصرخ، ويردد نفس كلماته، ثم يصيح:

ردى عليه.. انت حاتجننينى.. أنا عارف انت عايزانى اموت وتخلصى منى!

وتلقى الصحيفة من امام وجهها ويرى عينيها الغاضبتين الحازمتين فيسكت ويفيق لنفسه.. ثم يهمس بعد فترة:

سامحينى يا عليّه.. المريض عذره معاه.

وتبتسم هذه الابتسامة التى لا تكشف عن اسنانها، ثم تقوم إليه لتدلك يديه وجبينه بماء «الكولونيا» ثم تخاطبه وفى عينيها ظل من الحنان:

ما تتعبش نفسك يا عزيز.. الدكتور قال لازم تستريح.. وكلها يومين وتبقى بصحة وعافية.. بس ساعد ربنا وساعد الدكتور وانت تخف!

فكان يهدأ، ريثما تثور فيه انانيته وحقده مرة اخرى، فتبدأ مشاكله من جديد..

ولم تترك هذه الايام عليّه دون ان تؤثر فيها.. فقد جفت حتى أصبحت كحزمة من اعواد الحطب، لا طراوة فيها ولا شيء من معانى الانوثة.. حزمة خشنة ليس فيها حب، وليس فيها مرح، وليس فيها ضعف، ولولا مظاهر الشباب التى بقيت لها لما كان فيها حياة.

ولكن هذه الحزمة الجافة من اعواد الحطب كانت تتحرك، كلما خلت عليّه بنفسها فى غرفتها.

وهى منذ مرض زوجها لم تعد تشاركه الفراش، وانتقلت إلى حجرة صغيرة انيقة تشرف على الحديقة خصصتها لنفسها، وكانت كلما دخلتها تذكرت امها.. انها تقيم فى مثل هذه الغرفة، وتعتزل فيها الساعات، واتصلت الساعات حتى أصبحت سنوات.. ولأول مرة بدأت تقارن بين نفسها وبين امها..

انها صورة منها..

وصورة من حياتها.. فقد تزوجت امها وهى فى الخامسة عشرة رجلا فى الخامسة والاربعين مات فى الستين، وتركها ارملة فى الثلاثين من عمرها.

وعندما وضحت لها هذه المقارنة عرفت سر الغلالة القاتمة الحزينة التى كانت تحيط بامها، وعرفت سر صمتها الطويل، وعرفت سر حنانها الجاف.. ثم بدأت تخاف، ولم تكن تخاف ان يموت زوجها كما مات ابوها، وانما كانت تخاف ان يلحقها المصير الذى سبقتها إليه امها.

كانت تخاف العزلة الطويلة التى تعيش فيها امها، والوحدة القاسية التى تحيط بها، وتخاف تعمد الحرص الشديد على

صيانة نفسها من كلام الناس الذى تتعرض له كل ارملة شابة.

وفى خلال هذه الاحاديث الطويلة بينها وبين نفسها تجسم لها عمرها.. انها فى التاسعة والعشرين!

هل هذه هى حياة امرأة فى التاسعة والعشرين.. عمر الانوثة الناضجة، وعمر الحياة والحب؟

وهل كان عمرها يوما الثامنة والعشرين، أو السابعة والعشرين..وهل عاشت يوما فى عمر العشرين أو التاسعة عشرة أو الثامنة عشرة؟

هل كانت يوما صبية، وهل كانت يوما شابة؟

وهل شربت من هذا الصبا، وارتوت من هذا الشباب؟

ابدا..

انها قفزت مرة واحدة من سن الخامسة عشرة إلى سن الاربعين، وضاع ما بينهما من سنوات العمر!!

وكانت هذه الخواطر تطوف بها كالسحب لا تستطيع ان ترى ما وراءها، ولا ان ترى ما فيها، ولكن سؤالا واحدا الح على ذهنها كثيرا:

لماذا اختارت لها امها هذا الزوج؟.. ولماذا قبلته هى زوجا لها؟

واذا كان لها فى سذاجتها يوم تزوجت عذر، فما هو عذر امها؟!

ولم تستطع ان تجد جوابا..

ورغم ذلك فهى لم تكن تكره زوجها عزيز، ولم يكن يهمها ان تحبه، فهى لم تعرف فى حياتها الحب حتى تتخذ منه

فاصلا بين رجل ورجل.. انما كانت تكره ان تكون ارملة.. وهى لا تستطيع ان تمنع نفسها من التفكير فى ان زوجها سيموت قريبا، وسيتركها ارملة.

انها لا تريد له الموت.. لانها لا تريد لنفسها الترمل!

ثم كانت تبكى، حتى تضعف جفونها عن حمل دموعها فتنسدل فوق عينيها وتنام نوما مضطربا قلقا تزورها خلاله احلام كأنها الاشباح.

فاذا كان الصباح بدت كما تعودت ان تبدو دائما كامرأة فى الاربعين، واخفت اضطرابها وقلقها وراء الحزمة الخشنة من اعواد الحطب.. وانشغلت فى رعاية زوجها المريض، وفى استقبال المعيدين، وفى مصاحبة الاطباء، وكان بينهم دائما، «الدكتور خالد».. طبيب شاب طويل القامة متسق تقاطيع الوجه، اسمر اللون، بين شفتيه دائما ابتسامة كبيرة مطمئنة، وفى عينيه دائما نظرة ملؤها الطيبة والحنان، ويحيط به دائما عبير هادىء يريح الاعصاب.

وكان أكثر الاطباء اهتماما بحال المريض، واصدقهم فى تشخيص المرض وفى وصف الدواء، وكان يحرص دائما بعد عيادة المريض على ان يشرح لزوجته حالته شرحا مفصلا، ويشرح لها الحالات المشابهة، ويشرح لها مفعول الادوية التى يصفها ومركباتها وكان يقنعها بانها الطبيب الأول المعالج. فعليها ان تفهم كل ذلك حتى ينجو المريض على يديها.

وكانت عليّه ترتاح إليه، وتثق به، وكان الزائر الوحيد لهذا البيت الذى يستطيع ان يحظى منها بهذه الابتسامة الضيقة التى تكشف عن اسنانها.. ولم تكن تبتسم له وانما كانت

تبتسم لابتسامته التى لا تستطيع ان تراها إلا وتتجاوب معها.

ولكن المريض كان يكرهه.

كان يكره شبابه، وكان يكره اتساق تقاطيع وجهه، وكان يكره ابتسامته، وطيبته والعبير الذى يحيط به.. وكان كلما عاده ووقف بجانب فراشه ووقفت بجانبه زوجته اخذ ينقل النظر بينهما، ثم يدير رأسه ويزم شفتيه، ولا يبين عما فى نفسه.

ثم بدأ يطالب بمنعه عن عيادته، ولكن عليّه اصرت على ان يعوده.

وصمم يوما على ان الدكتور خالد يخطىء فى تشخيص مرضه ويخطىء فى وصف الدواء، وبدأ يدعى سوء حالته واشتداد المرض عليه، فاستدعت عليّه خمسة من مشاهير الاطباء عقدوا «كونسلتو» حول المريض، ثم اقروا تشخيص الدكتور خالد ودواءه.

واستمر خالد فى عيادة المريض، والمريض لا يزال يبدى عدم ثقته به.. وفى آخر مرة عاده، خرج من الغرفة بعد ان اتم الكشف عليه، وخرجت وراءه عليّه لتتلقى تعليماته، ثم عادت إلى زوجها، فاستقبلها وفى عينيه مقدمات ثورة من ثوراته المجنونة:

كان بيقولك اية؟

كان بيطمنى على صحتك

نص ساعة يطمنك فيها على صحتى، امال لو كان بيطلب ايدك كان قعد قد اية؟!

ونظرت إليه عليّه نظرتها الحازمة الصامتة..

واستمر عزيز قائلا:

انا عايز افهم، اية سر اصرارك على الدكتور ده؟!

وقالت فى اختصار:

لانه دكتور كويس..

وصرخ وهو يكاد يهم من الفراش:

يا ستى مش عايزه.. حد شريكى.. ده صحتى انا وحياتى انا.. مش عايز اشوفه فى البيت ده خالص.. هوه اللى حيموتنى.. وأنا عارف عايز يموتنى ليه!

وفهمت عليّه ما يرمى إليه، وعادت تنظر إليه نظرتها الحازمة، وأضافت إليها جملة واحدة:

خلاص.. مش حتشوفه!

وخرجت إلى غرفتها، وجلست وحيدة بين افكارها.. انها المرة الأولى التى يكشف فيها زوجها عن غيرته عليها، والمرة الأولى التى يغار عليها من شخص معين بالذات، وقد تكون غيرته لمجرد اضطراب اعصابه بسبب مرضه، ولكن لماذا اختار الدكتور خالد بالذات ولم يختر طبيبا آخر، أو احدا من اصدقائه الذين تستقبلهم؟!

وبدأت تستعيد صورة خالد وتمعن فيها النظر.. شبابه.. وقامته.. وقوته.. وتقاطيع وجهه.. وابتسامته.. والعبير الذى يحيط به.. ترى هل يمكن ان يكون خالد زوجها بدلا من عزيز، وهل يمكن ان يكون خالد من نصيب امرأة اخرى؟ ام من امثال هؤلاء الرجال الذين لا يتزوجون؟ وليسوا من نصيب النساء؟!

وتنبهت انها ـ لأول مرة ايضا ـ تفكر فى رجل آخر.. فقد

قضت عمرها كله لا يخطر على ذهنها ولا على قلبها رجل. ولا خطر لها ان تقارن بين زوجها وبين آخر.. كانت تعيش فى عمر الاربعين معتقدة أن هذه هى الحياة، وكانت تعيش مع زوجها معتقدة ان هؤلاء هم الرجال!

ولم تستطرد طويلا وراء تفكيرها فى خالد، وهزت كتفيها كأنها تتعجب لحالها، وتتعجب كيف يترتب على اشارة من زوج مريض غيور كل هذه الفكرة.

ثم عادت كما كانت!

ولم يعد الدكتور خالد يتردد على البيت أو يعود المريض، واستبدل بطبيب آخر.

ومر أسبوع وبضعة أيام، واذا بالمريض يصاب بنوبة اغماء فى الساعات الأولى من المساء.

واسرعت عليّه إلى التليفون تستدعى الطبيب المعالج فلم تجده فى عيادته ولا فى بيته!

وبحثت عن طبيب ثان فلم تجده ايضا.

ولم تفكر فى طبيب ثالث، انما ادارت ارقام التليفون واتصلت بالدكتور خالد.

وجاء خالد بعد دقائق، وانحنى على المريض يعالجه حتى افاق من اغمائه، ولم يكد يرفع عينيه وتصطدمان بوجه الطبيب، حتى عاد واغلقهما، وهو يحرك يديه كأنه يلعنه.

وظل خالد بجانبه حتى اعتقد ان النوبة قد زايلته، ثم خرج من الغرفة وخرجت وراءه عليّه، ووقفا يتحادثان بجانب الباب المغلوق بصوت هامس. وفجأة احسا بصوت باب المريض يفتح ويطل منه وجه عزيز.. اصفر نحيلا كأنه وجه الموت.. واذا به

يخطو نحوهما وهو يتلمس الجدار مستندا عليه ويجر رجليه الضعيفتين وراءه.. واذا فى عينيه شرر مجنون.. واذا به يلهث وينبعث من صدره صوت كصوت منفاخ ينفخ فى نار باردة.

وخافت عليّه، وارتسم فى عينيها الرعب، والتصقت بخالد وهى تمسك بذراعه كأنها تحتمى به.وخطا الوجه الاصفر ذو العينين المجنونتين خطوات اخرى نحوهما.

وشهقت علية

وقال عزيز فى صوت محشرج خافت تقطعه الانفاس اللاهثة:

بتقولوا ايه.. انا لسه ما متش.. ومش حاموت ابدا.. حافضل قاعدلكم على طول.. وحاحرمك من الميراث علشان ما يتجوزكيش.. يا.. خا.. ينه.. يا.. مجرمة.. أنا مش.. حا.. مو.

وسقط على الارض.

واسرع خالد ينحنى فوقه ويتسمع دقات قلبه، وفتح حقيبته واخرج حقنة كافور حقنه بها.. وحقنه مرة ثانية.. ومرة ثالثة.

ولكنه كان قد مات!

□□□

ووقفت عليه يوم تشييع الجنازة دون ان يزيد عليها شيء.. فلم تصرخ، ولم تبك ولم تتعلق بنعش زوجها وهو يخرج من الدار الى حيث لا يعود، كل ما حدث ان الغلالة القاتمة التى تحيط بها قد ازدادت قتوما، والحزن الصامت قد ازداد صمتا. والذين شهدوا امها يوم مات زوجها، تكرر امامهم نفس المشهد يوم مات زوج الابنة.. كلتاهما حملت الحزن فى صدرها،

وكلتاهما تاهت افكارها فيما لا يدريه احد.

ودخلت عليّه إلى غرفتها بعد انصراف المعزين، ولم تفكر فى الترحم على المرحوم، ولم يخطر على بالها كيف تدبر حالها بعد موته، وانما انحصر تفكيرها فى نفسها.. لقد أصبحت ارملة.. أرملة فى التاسعة والعشرين من عمرها وستبقى ما بقيت ارملة.. ارملة. وخيل اليها ان الجدران قد انطلقت منها اصابع ساخرة تشير إليها وتصيح:

ارملة.. أرملة.. ارملة.

وفتح الباب ودخلت امها صامتة متشحة بالسواد..

ونظرت إلى امها فى فزع، ورأت نفسها فيها، رأت فيها مستقبلها.. مستقبل الارملة.. فابتعدت عنها إلى اخر الغرفة حتى التصقت بالجدار، وهمست فى صوت خافت:

اخرجى.. اخرجى!

ثم صرخت:

اخرجى.. اخرجى!!

ثم هجمت على امها تدفعها بيديها إلى خارج الغرفة، وهى تصرخ: اخرجى.. باقولك اخرجى من هنا!

وخرجت الأم، وصفقت عليّه الباب فى قوة كأنها قتلت به شبحا مخيفا جاء يقودها إلى طريق طويل مظلم نهايته الموت..

طريق عمرها..

واسندت عليّه ظهرها الى الباب وهى تلتقط انفاسها..

ونظرت امامها، فاذا بها تلتقى بالمرآة.. وترى صورتها متشحة بالسواد.. صورة من امها.

صورة الارملة..

وصرخت عليّه، ثم انكفأت فوق فراشها تبكى!

(٣)

واعتكفت عليّه فى غرفتها بضعة أيام، لا تريد ان ترى احدا ولا ان يراها احد.. اعتزلت كل الناس حتى امها، بل انها لم تعتزل الناس إلا لتعتزل امها.. لا تريد ان تراها.. لا تريد ان ترى هذا الرداء الاسود، وهذا الوجه الجامد الذى تحيط به هذه الغلالة القاتمة الحزينة، وهاتين العينين الصامتتين كأنهما فوهتا قبر كساهما فنان فأبدع فى اختيار الالوان ولكنه لم يستطع ان يقطر فيهما الحياة.. ولا تريد ان ترى الشفتين المزمومتين كأنهما اطبقتا إلى الابد، ولا ان تسمع من بينهما هذه الكلمات المبتورة الجافة التى تخرج كطلقات مسدس لا ينطلق الا ليصيب..

لقد ثارت على امها..

هى التى زوجتها هذا الرجل، وكانت تعلم انها ستكون ارملته وهى فى التاسعة والعشرين من عمرها.

هى التى اغتصبت صباها وهى فى الخامسة عشرة من عمرها، وقضت على شبابها، والبستها السواد وهى بعد لم تصل إلى الثلاثين.

لماذا زوجتها؟.. ولماذا ارادت لها هذه الحياة؟

انها لا تدرى، ولم تبحث طويلا وراء ما لا تدريه، ولكنها فى ثورتها على امها ثارت على نفسها.. ثارت على هذا الجمود الذى عاشت فيه منذ تزوجت، وثارت على العقلية التى سيطرت

عليها.. عقلية امرأة فى الاربعين من عمرها.. وثارت على التقاليد التى حرصت عليها، وثارت على العزبة التى اجادت ادارتها، وثارت على مجوهراتها التى اكتنزتها، وثارت على الارث العريض الذى خلفه لها زوجها.

كانت تريد شيئا غير كل هذا. شيئا ضاع منها..

كانت تريد عمرها.. صباها، وشبابها!

ووقفت امام المرآة. هل هذا وجه شابة فى التاسعة والعشرين من عمرها؟

وحاولت ان تبتسم امام مرآتها.. ابتسمت ابتسامة كبيرة كشفت عن اسنانها، ثم ضحكت بصوت عال، وخيل إليها ان ضحكتها جافة كهدير موتور سيارة قديمة، فضحكت مرة ثانية، وحاولت ان تضمن ضحكتها رنة انوثة، ورنة صبا، ورنة خلاعة.. ثم مدت يديها إلى شعرها المشدود إلى الوراء فى ضفيرة واحدة معقوصة خلف رأسها، واحلته من سجنه الطويل وتركته ينسدل حرا طليقا فوق كتفيها، ثم سحبت خصلة منه وتركتها تنسدل فوق عينيها فى اهمال مثير، ثم اخذت تنفخ فى هذه الخصلة بشفتيها فتتأرجح فى الهواء كأنها فراشة هامت بها حتى لا تدرى من اين تقبلها.. ثم امسكت بفتحة الصدر من ثوبها وشدتها إلى كتفيها لتكشف عن مساحة اوسع من جمال صدرها.. ولأول مرة ترى ان صدرها لا يزال فى عمر الصبا، لم تمتد يد إلى ثماره، ولم تنتهك يد حرمته، ولا يزال فوق عرشه العالى لم ينزل عنه ولا يحتاج إلى ما يشده إليه.. ولأول مرة ترى جمال بشرتها، وتتحسس الكنوز المخبأة تحت ثوبها، وتمر بكفيها فوق ذراعيها

فيخيل إليها ان النار تدب فيهما، وتكشف الثوب عن ساقيها فيخيل إليها ان النور ينطلق منهما.

ومدت يدا مترددة إلى اصبع «الروج» واخذت تصبغ شفتيها، وخيل إليها ان وجنتيها قد طغت عليهما صفرة، فمرت عليهما بالطلاء!

ثم اخذت تروح وتغدو امام المرآة، وتحملق معجبةبهذه الصورة الجديدة المرتسمة امامها.

هذا هو الصبا.. هذا هو الشباب!

الصبا والشباب اللذان ضاعا منها!

وفجأة.. خيل اليها ان صورة امها قد برزت من خلف صورتها.. حزينة جادة متشحة بالسواد تحيط بها هذه الغلالة القاتمة..

وارتسم فى عينيها شىء كأنه الفزع، وابتعدت عن المرآة، ثم قذفتها باصبع «الروج» الذى كان لا يزال فى يدها، ثم القت برأسها بين كفيها، تبكى!

ولم يزدها البكاء الا تصميما..

وكانت فى تصميمها كأنها تتحدى امها.. تتحدى هذا الثوب الاسود، وهذه الغلالة القاتمة.

ستتحدى.. ستسترد عمرها، ستسترد صباها، وشبابها..

ستبدأ الحياة من جديد.. وستبدأها من حيث فقدتها!

ولم يدر احد ما كان يدور بينها وبين نفسها وهى فى عزلتها عن الناس داخل غرفتها، وربما خيل إلى الجميع انها صدمت بوفاة زوجها فاعتزلت تبكيه، وان الحزن قد استبد بها

حتى لم تعد تريد ان ترى من يذكرها بالحياة.. وربما خاف عليها البعض طول وحدتها فحاول ان يقحم نفسه عليها، وربما سمع البعض شيئا من بكائها وشيئا من ضحكها فظن انها قد اصيبت بانهيار عصبى، واخذ ينصح بدعوة طبيب.

وكانت الأم تقيم معها فى البيت طول هذه الأيام، لا تحاول ان تتدخل فى عزلتها، ولا تحاول ان تخفف عنها شيئا من حزنها ان كان حزنا، أو شيئا من مرضها ان كان مرضا، ولكنها كانت دائما تراها بقلبها.. ولم يخطىء قلب الأم، فقد احست ببعض ما تعانيه ابنتها، وتلمست بعض هواجسها، وربما مرت بها بعض هذه المعاناة وبعض هذه الهواجس عندما مات زوجها هى الاخرى.. ولكنها لم تستطع ابدا ان تقدر إلى اى حد يمكن ان تصل ابنتها فيما تعانيه وفيما يطوف بها من هواجس، ولو علمت فربما قطعت عليها عزلتها، وربما مدت إليها يدا، وربما اقامت من شخصيتها سياجا تحاول ان تفرضه على ابنتها وتحميها به.. ولكنها لم تكن تعلم، فلم تفعل شيئا.. وانتظرت هذه الايام صابرة وراء غلالتها القاتمة.. مكتفية بما ينقله لها الخدم عن صحة ابنتها كلما دخلوا اليها بالطعام وخرجوا به دون ان ينقص منه الا مضغات.

وفوجىء الجميع يوما..

لقد خرجت عليّه من غرفتها..

وبحلق الخادم النوبى فى دهشة حتى كادت عيناه تنطلق من محاجرها وتمتم: «بسم الله الرحمن الرحيم»!

ووقفت الخادمة مذهولة وكأنها سمرت حيث كانت تقف، حتى لم تعد تستطيع ان تبلع ريقها.

ورفعت سيدتان كانتا فى زيارة الأم، حاجبيهما فى عجب، وخبطت احداهما على صدرها ثم مالت على الاخرى تهمس فى صوت كالفحيح، وكأنها افعى تهمس فى اذن افعى..

ووقفت الأم صامدة كجذع صلب من شجرة السنديان، ولم يطف على وجهها من دهشتها شىء إلى ان الغلالة القاتمة قد ازدادت قتوما، والصمت الحزين قد اشتد حزنا..

كانت عليّه التى خرجت من غرفتها فى هذا اليوم، غير عليّه التى مات عنها زوجها منذ بضعة ايام.

كانت قد ارسلت شعرها فى ضفيرة مفردة فوق صدرها، وتركت منه هذه الخصلة التى تتأرجح امام عينيها، وكانت قد صبغت شفتيها ووجنتيها بالطلاء، وكانت قد شدت فتحة ثوبها الى كتفيها حتى كشفت عن مساحة اوسع من جمال صدرها، وكانت قد ارتدت ثوبا بسيطا واسع الاطراف كأنه ثوب فتاة فى الخامسة عشرة، وكانت تضع فى قدميها حذاء بلا كعب كأنها احدى طالبات المدارس، وزادت على الطالبات ان ساقيها لم يكن يغطيهما جورب.. ولم يكن قد بقى لها من مظاهر الحزن على الزوج الفقيد الا لون ثوبها الاسود.

وسارت عليّه إلى الباب الخارجى، لا تنظر الى احد، ولا تلتفت إلى احد، وفى عينيها تصميم أكيد وعلى وجهها عاصفة توشك ان تهب اذا ما اقترب منها احد.

ولحقت بها امها فى البهو، ونادتها بصوت حاولت ان يكون خافتا رقيقا:

عليّه..

ولم ترد عليّه، فرفعت الأم صوتها قليلا وهى تسرع الخطى

لتلحق بابنتها:

عليّه.. عليّه!

ووقفت عليّه وادارت لامها عينين كلهما تحد وجرأة:

عايزة اية؟!

وكانت المرة الأولى التى تخاطب امها هكذا، دون ان تسبق كلامها بلقب «حضرتك» أو تعقبه بلقب «افندم».. وحزت لهجتها فى قلب الأم، ولكنها كتمت ما فى قلبها، وحاولت ان تحتفظ لصوتها بهدوئه ووقاره:

مش نقعد نتكلم شوية يا عليّه؟

مش فاضية.. انت مش شايفانى خارجة؟

بس فيه حاجات مهمة لازم نتكلم فيها!

انا زهقت خلاص من الحاجات المهمة.. من هنا ورايح مافيش حاجة مهمة ابدا.

ورفعت الأم صوتها قليلا وقالت بلهجة حازمة اشبه بالقاء الاوامر:

انا لازم ارجع بيتى النهارده.. ولازم ترجعى معايا..

وطافت على شفتى عليّه ابتسامة هازئة، كأنها تسخر من امها ومن لهجة الامر التى تحادثها بها:

مين قال انى لازم ارجع معاكى.. اتفضلى انت ارجعى، وانا حاقعد فى بيتى.. حاقعد فيه على طول!

وعادت الأم تقول وهى محتفظة بلهجتها الحازمة الآمرة:

البيت ده لازم يتقفل.. مافيش بنات يقعدوا فى بيوت لوحدهم!

وكادت الابتسامة الساخرة تنقلب الى ضحكة فيها من السخرية اكثر مما فى الابتسامة:

بنات!! انت خليتى فيّه حاجة من البنات.. انا ارملة ياماما.. نسيتى قوام انى بقيت ارملة زيك تمام.

انت لست شابة.. وكلام الناس كتير!

لا مش شابة.. لسه مابقتش شابة.. حبتدى شبابى من النهارده.. شبابى انا وماحدش شريكى فيه.. وانت أول واحدة ما اسمحشى لها تكون شريكتى.. مش حاقعد معاكى، ومش حاسمع كلامك.. مش عايزة ابقى زيك.. عايزة اتمتع بالدنيا، واتمتع بشبابى..

وسكتت الام برهة، ثم قالت فى صوت خافت كأنها تتنهد:

اذا كنت حرمت نفسى من الدنيا فعلشانك وعلشان خاطر اخوكى.. علشان اربيكم من غير ما ادخل عليكم راجل غريب عنكم!!

ولم يلن قلب عليّه وقالت وهى تكاد تكون وقحة:

انا ماليش لا بنت ولا ولد.. سيبينى بأه اتمتع بالدنيا، ولا عايزانى ارد لك الجميل وما اتمتعش بيها علشان خاطرك.. كفاية اللى عملته علشانك.. كفاية اديتك عمرى فحرمتينى منه.. جوزتينى وانا لسة طفلة، وشيلتينى الهم من بدرى، ورملتينى وانا لسه فى شبابى!

ورق صوت الأم كأنها اشفقت عليها وقالت:

ده مش وقت الكلام ده يا عليّه.. حرام عليكى المرحوم لسه ما استريحش فى تربته!

وصرخت عليّه كأنها تلعن المرحوم فى قبره:

المرحوم اللى بتقولى عليه مات وهو بيلعنى.. ماكانش هاين عليه يفوتنى لشبابى، كان عايز ياخدنى معاه فى تربته!

واحتدت عليّه حتى بكت وانهمرت دموعها فوق وجنتيها، وخطت امها إليها خطوة اخرى، ومدت يدها تربت على كتفها:

انت اعصابك تعبانة يا عليّه لازم تستريحى.. يالـلا يا حبيبتى نرجع بيتى سوا، والعمر قدامك طويل.. بكره تتجوزى تانى وتخلفى، وتتمتعى بالدنيا..

وتمردت عليّه مرة اخرى وازاحت يد امها عنها فى قسوة:

اتجوز تانى!! لأ، مرسى.. لازم الأول ادور على شبابى اللى ضاع منى.. ويوم ما اتجوز انا اللى حاختار جوزى.. مش انت، ولا حد فى الدنيا.. انا وحدى!

واتجهت نحو الباب الكبير، ثم التفتت إلى امها قبل ان تخرج:

اذا كنت عايزة ترجعى بيتك اتفضلى.. انما انا حاقعد لوحدى فى البيت ده!

وسقطت الأم فوق مقعد صامتة وعيناها تنظران إلى بعيد، ولا تريان شيئان.. سقط جذع السنديانة وكأن السوس قد نخر لبه حتى اتى عليه، فلم يعد يستطيع ان يصمد للريح!

وخرجت عليّه الى الحديقة، وتوارت خلف شجرة تجفف دموعها، ثم اخذت تسير بين شجيرات الورد وهى منكسة الرأس، كأنها لم تعد تحتمل كثرة ما يطوف بها من فكر.. ثم وجدت نفسها تنسى امها وما كان بينهما، وتعود تتذكر صباها الذى ضاع وتصميمها على ان تسترده.. وانفرجت شفتاها عن

ابتسامة باهتة مترددة، ثم افتعلت ابتسامة كبيرة، وتعمدت ان ترفع راسها، وان تنظر إلى الورود والزهور من حولها، واقنعت نفسها انها تتذوق جمال هذه الورود والزهور.. ثم قطعت وردة فى عمر الصبا لا تزال تطل من اكمامها على حياء، ورشقتها فى شعرها.. ثم اخذت تضرب الحصى بقدميها كما كانت تفعل وهى صبية، ثم تجرأت وقفزت على قدم واحدة كأنها تلعب الحجلة. ولم تكد تقفز حتى وجدت نفسها تتلفت كأنها تخشى ان يراها احد.

ولم تكد تتلفت ناحية باب الطريق حتى رأت الدكتور خالد يدخل..

وحاولت ان تختبىء خلف شجيرات الورد، ولكن خالد كان قد رآها ولوح لها بذراعه، ثم اخذ يتقدم إليها..

واحست بحرج كبير كأنها ضبطت تأتى فعلا منكرا، ثم احست بشعور الصبا الذى بدأ يطرق قلبها يزايلها، واحست انها تعود كما كانت قبل ان يموت زوجها تتقمص شخصية امرأة فى الاربعين، وبحركة غير ارادية ازاحت ضفيرتها التى كانت تتدلى فوق صدرها الى خلف ظهرها ونزعت الوردة التى رشقتها فى شعرها منذ دقائق والقت بها على الأرض، ووضعت كفها فوق صدرها لتغطى ما كشف عنه الثوب من جماله.. ثم اذا بها تشعر بابتسامتها تنسحب من فوق شفتيها، وبوجهها يتجهم، وبهذه الغلالة القاتمة الحزينة تطوف بها لتلفها.

وحاولت ان تقاوم كل ذلك.. وتحتفظ بمظهر الصبا الذى صممت عليه، ولكنها لم تستطع.. وكان خالد قد اقترب منها..

طويلا.. اسمر.. متسق تقاطيع الوجه.. بين شفتيه ابتسامة كبيرة مطمئنة، وفى عينيه نظرة ملؤها الطيبة والحنان، ويحيط به عبير هادىء يريح الاعصاب:

بونجور يا عليّه هانم..

بونجور..

انا جيت اطمئن عليكى..

مرسى..

صحتك الحمدلله كويسه..

الحمدلله

وماما ازيها؟

الحمدلله..

كانت تبتر الكلام بترا حتى لا تدع مجالا ليستطرد فيه، واخذ خالد ينظر حواليه كأنه ينتظر منها ان تدعوه إلى داخل البيت أو تدعوه ليسير معها فى الحديقة.. ولكنها لم تتكلم.. كانت تريده ان ينصرف، ان يعود من حيث اتى، فقد كان وجوده يذكرها بأيامها ويحول دون ان تستطرد فى خيالها، وفى تمثيل المسرحية الجديدة التى وضعتها لنفسها لتمثلها على مسرح عمرها.. مسرحية بطلتها فتاة صبية..

وعاد خالد يقول:

انا مبسوط اللى شفتك خرجتى فى الجنينة..

- ....

وبالمناسبة دى احب اقولك... و...

وتردد خالد قليلا حتى اسكته تردده، فنظرت إليه بعينين

متسائلتين، فقال وهو لا يستطيع ان ينظر فى عينيها:

كنت أحب اقول انى متأسف جدا.. ايوه.. متأسف جدا.. للكلام اللى قاله المرحوم قبل ما يموت... و...

وقاطعته عليّه غاضبة:

ارجوك بلاش السيرة دى!

انا متأسف..

وقالت وهى لا تزال غاضبة:

وأنا متأسفة لانى مضطرة اسيبك دلوقت.. أنا كنت خارجة ساعة ما جيت، اتفضل فوق.. ماما قاعدة لوحدها..

ومدت له يدا باردة.. ثم ادارت ظهرها واتجهت نحو باب الخروج، وهى تسير فى خطى مرتبكة، كأنها لا تدرى اتسير كامرأة فى الاربعين أم كفتاة فى الخامسة عشرة.

ووقف خالد ينظر إليها وهو فى حيرة.. وربما كان ينظر إليها كمريض لم يكتشف مرضه ولا دواءه!

xxx

ووصلت عليّه فى سيرها إلى شارع «البارون».. وكانت المرة الأولى التى تسير على قدميها فى شارع منذ ثلاثة عشر عاما، فهى منذ تزوجت لم تخط على قدميها الا بين حجرات البيت أو فى حديقة الدار أو فى حديقة العزبة.. واحست فى سيرها كأنها سجين اطلق سراحه بعد عمر طويل فخرج يخطو إلى الحرية وهو يهابها، ويقدم على الدنيا مترددا يبتسم لها ويخشاها..

وتلفتت بين جنبات شارع «البارون» فرأت طفولتها

وصباها:

هنا فى هذا الموضع من الحديقة التى تتوسط الشارع الطويل، كانت تلهو وهى فى الخامسة من عمرها بينما «دادا فاطمة» تتزعم حلقة «الدادات» التى كانت تنعقد كل عصر.. وهنا كانت «تنط الحبل» وهى فى التاسعة من عمرها وتلعب «الاستغماية» مع صديقتها.. وهنا عند هذا الرصيف بدأت تتعلم ركوب الدراجة سرا وهى تخشى ان يبلغ الخبر امها.. وهنا سقطت من فوق دراجتها واصيبت بجرح كبير فى ساقها لا تزال آثاره عالقة بها، ولم تأبه يومها بآلام الجرح بقدر ما خشيت افتضاح امرها فى البيت والضجة التى كان يمكن ان تحدث عندما يكتشفون انها تركب الدراجات، ولكن اهل البيت طغت لهفتهم على سلامة ساقها فلم يحاسبوها على شىء.. وهنا فى هذا الجزء من الطريق جرى وراءها عثمان السفرجى ليناديها من فوق دراجتها لتذهب الى البيت فتسمع خبر خطبتها إلى زوجها عزيز..

وتجهم وجهها بعض الشىء عندما وصلت فى ذكرياتها الى هذا الحد..

انها تريد ان تسترد حياتها منذ هذا اليوم.. اليوم الذى تركت فيه دراجتها لتسمع خبر خطبتها..

واحست برغبة جامحة فى ان تركب دراجة من جديد.. وتمنت ان يجرى وراءها السفرجى ويناديها مرة اخرى فلا تلبى نداءه ولا تذهب الى البيت ولا تسمع خبر خطبتها!!

وسمعت من خلفها صوت جرس دراجة يدق، وكأنه يدق فى اذنيها.. فالتفتت إلى الوراء، وكان التفاتها اسرع مما يتوقع

راكب الدراجة فاصطدم بها صدمة شديدة، فوقعت على الأرض ووقع فوقها، ووقعت بجانبها الدراجة..

وأسرع الراكب فى النهوض.. شاب فى التاسعة عشرة من عمره ينتفض الشباب من عينيه وفى عضلات صدره وذراعيه، وفى ملامح وجهه القوية السمحة، ويرتدى قميصا مخططا وسروالا رماديا.. واحد من هؤلاء الفتيان الذين يجتازون سن الغرور، وتتسلل فى دمائهم بواكير الرجولة فلا يحسون بها الا فى قوة عضلاتهم، وفى مغامرات صبيانية تتأرجح بين الطيش والتعقل، ولا يأخذون من هذه الرجولة الا مظاهرها، فيدخنون دون ان يتذوقوا للدخان طعما، ويسكرون دون ان يفهموا للكأس معنى، ويدعون الحب وهم لا يشعرون به الا بقدر ما فيه من حرمان، ولا يقبلون عليه الا بقدر ما يطفئون به ما يزيد عن طاقتهم من نار الشباب، ثم لا يحسون من لذاته الا بقدر ما يتباهون به امام الاقران!

ووقف الفتى امام عليّه وهى لا تزال ملقاة على الارض، مرتبكا متلعثما لا يدرى ايمد لها يدا ليرفعها عن الارض، أم يعتذر لها بكلمة..

وخف عنه ارتباكه عندما رأى عليّه تبتسم له فيبتسم لها ووجهه لا يزال محتقنا ارتباكا.. ثم اذا بها تضحك، وتغرق فى الضحك، فيضحك معها وهو لا يدرى ما الذى يضحكها ولا لماذا يضحك معها!

ونظرت عليّه إلى الدراجة الملقاة بجانبها، ثم اعادت عينيها إلى الفتى، وقالت كأنها تتوسل:

اديني دور!

ودهش الفتى وقال متلعثما:

اتفضلى يا افندم!!

وقامت عليّه من على الارض، وامسكت بالدراجة ورفعتها إليها، ثم قفزت فوقها كأنها ابنة الخامسة عشرة واعملت فيها ساقيها دون ان تأبه بأثر الكدمات والخدوش التى سببتها لها الصدمة ووقوعها على الأرض.

وغابت فى افق الشارع الطويل..

وانتظرها الفتى طويلا، وهو فى حيرة من امرها..

ثم عادت إليه تلهث فوق دراجته، وقد ارتفعت الدماء الى وجنتيها حتى اصبحتا فى لون اللهب، وتناثرت خصلات من شعرها تتأرجح امام عينيها كأنها خطرات من اوهامها تشد الزمن إلى الوراء كلما جذبها الزمن إلى الامام..

ونزلت من فوق الدراجة، وقالت له وصدرها يقوم ويقعد فوق عرشه العالى ليلاحق انفاسها المتهدجة:

مرسى..

العفو يا افندم..

وسكتت قليلا لتلتقط بعضا من انفاسها، ومدت يدها إلى شعرها تزيح الخصلات المتهدلة من امام عينيها، ثم قالت:

انت اسمك ايه؟

عادل..

وأنا اسمى عليّه.. انت بتركب عجل كل يوم؟!

تقريبا..

طيب بكره زى دلوقت، تعالَ هنا ومعاك عجلة تانية..

اورفوار!!

حاضر.. اورفوار!!

وتركته وسارت متجهة إلى بيتها وعلى شفتيها ابتسامة مرحة.. وبدا على الفتى انه خرج من حيرته إلى التفكير فى مغامرة جديدة، ثم ركب دراجته ولحق بها:

تحب اوصلك يا افندم؟!

قالها وهو فوق الدراجة.

وفكرت قليلا ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها:

ما عنديش مانع.. بس بلاش «يافندم» دى انت تقوللى يا عليّه، وانا اقولك يا عادل!

ثم قفزت فوق مقعد الدراجة الخلفى ومدت ساقيها إلى الامام بينما تعلقت بيديها فى خصره..

ولم يتكلما..

كانت سعيدة وقد خيل اليها انها بدأت عمرها من جديد..

وكان مزهوا بحمله الثمين، يكاد الزهو يخلع رأسه عن عنقه، وتمنى لو يمر به جميع اصدقائه، ليروه فى صحبة امرأة شابة، لا فى صحبة صبية صغيرة كاللاتى اعتادوا ان يصاحبوهن..

وقفز بواب البيت من فوق مقعده وهو لا يكاد يصدق عينيه عندما رأى سيدته تعود فوق دراجة يقودها فتى.. واذهلته الدهشة حتى لم يستطع ان يرفع يده بالتحية المعتادة، انما ظل يتتبعها بعينين جاحظتين وهى تنزل من فوق الدراجة وتحيى الفتى، ثم تقطع الحديقة فى خطوات مرحة، ثم تقفز الدرجات،

درجتين درجتين كأن الصبا قد ضج فى عروقها حتى لم تعد تحتمل ان تستقر على الأرض.

وخبط البواب كفا بكف، ونظر إلى السماء كأنه يسأل الله عن حكمته، وتمتم «لا حول ولا قوة إلا بالله»!..

ودخلت عليّه إلى البيت والصبا لا يزال يضج فى عروقها، ولمحت امها جالسة فى البهو، فتوقفت واحست بصباها يهرب منها كأنه يخشى امها أو لا يستطيع ان يواجهها حياء.. وفكرت ان تحييها، وربما فكرت ـ لفرط ما كانت سعيدة ـ ان تقذف بنفسها بين ذراعيها كما كانت تفعل وهى صغيرة، ولكنها عدلت عن كل ذلك، وخطت نحو غرفتها.. ولكن امها قطعت عليها طريقها بصوتها:

عليّه.. انا قايمة دلوقت مروحة بيتى؟!

وردت عليّه فى صوت حاولت ان يكون رقيقا، وتعمدت ان يكون حاسما لا يفتح بابا للمناقشة:

مع السلامة يا ماما.. أول ما توصلى اضربيلى تليفون!!

ثم دخلت حجرتها واغلقت بابها..

ووقفت امام مرآتها ترى نفسها وهى فى زى الصبا، وعادت إليها ابتسامتها الواسعة عندما رأت شعرها المهوش فوق رأسها، وعندما رأت ساقيها وذراعيها المتربة وما فيها من كدمات وخدوش من اثر الصدمة التى اوقعتها على الأرض..

وجلست تعالج هذه الكدمات والخدوش..

وعندما جاء المساء نامت كأن لم تنم ابدا.. نامت نوما عميقا هادئا بريئا كأنها صبية شبعت فى يومها من صباها..

وخرجت فى اليوم التالى لتقابل عادل، وقد احضر لها دراجة ووقف فى انتظارها.

وركبا.. وطافا فى شارع «البارون» والشوارع المتفرعة منه.. وضحكت كثيرا، بسبب وبلا سبب، ولم يكن عادل نفسه يدرى - فى احيان كثيرة - لماذا تضحك، ثم تسابقا فوق دراجتيهما.. وحاولت ان توقعه وحاول ان يوقعها.. وتحادثا.. حدثها عن مدرسته وعن اصدقائه وعن مغامراتهم ولمح لها عن مغامراته التى يزهو بها.. وحدثته، لا عن زوجها ولا عن بيتها، ولكنها كانت تروى له وقائع صباها التى حدثت منذ ثلاثة عشر عاما على اعتبار انها وقعت لها بالأمس، وحدثته عن «ماما» كأنها صبية تخشى امها وتكرر: «دى ماما شديدة قوى»!.

وتكررت بعد هذا اليوم مقابلتها مع عادل حتى اصبحت تقابله كل يوم.. أصبح صديقها الوحيد، وحرمت من بعده جميع الاصدقاء والصديقات الذين كانوا لها أيام زوجها.. اصبحت تنكر وجودها اذا سأل عنها احدهم فى البيت، وترفض ان تستقبل من يزورها منهم أو تستقبله فى برود لا يعود بعده.. حتى امها كانت تجلس إليها كلما زارتها بادية الملل والسأم حتى اضطرت ان تباعد بين كل زيارة واخرى.

ولم تكتف بهذا.. بل لمحت اعين الخدم وهى تلاحقها وتلاحق تصرفاتها، فطردتهم جميعا حتى البواب، واستبدلتهم بغيرهم وقد خرج كل منهم وهو يترحم على أيام المرحوم..

ولم يكن كل هذا كافيا لتحطيم كل ما يذكرها بالايام التى عاشتها كامرأة فى سن الاربعين.. فتركت البيت كله، إلى شقة انيقة فى احدى العمارات الجديدة فرشتها اثاثا انيقا حديثا

«مودرن» ليس فيه هذه القطع الضخمة الثمينة، وليس فيه صالون «اوبسون» ولا مائدة «روستيك» ولا شىء من طراز لويس الرابع عشر أو لويس الخامس عشر أو أى لويس.. انما انتقت جميع قطع الاثاث من الصحف الامريكية ومن افلام السينما..

ولم تعد تفكر فى شىء مما عودها زوجها الراحل ان تفكر فيه.. لم تعد تفكر فى ادارة العزبة بل تركتها للناظر يسرق منها ما يشاء ما دام يعطيها ما تشاء، ولم تفكر فى حصر تركة زوجها انما تركت كل شىء للمحامى، ولا تجلس إليه إلا ريثما توقع ما يطلب إليها ان توقعه من الاوراق.

ولم تعد علاقتها بعادل تقتصر على ركوب الدراجات، انما كانا يخرجان سويا فى الامسيات ليأكلا «سندويتش فول» عند «منصورة» أو يتناولا اقداح «الجيلاتى» أو يذهبا إلى سينما روكسى.. أو يخرجا فى سيارتها ليذهبا إلى احدى دور السينما فى المدينة، وكان عادل يقود السيارة وهى بجانبه، وكان دائما يبدو أكثر اهتماما بالسيارة وأكثر سعادة بقيادتها، من اهتمامه بها وسعادته بقربها..

وبدأت تدعوه إلى بيتها، وتكررت الدعوة حتى أصبح من حقه ان يدعو نفسه، وكانا يجلسان ليلعبا الشطرنج أو الكتشينة أو يتحادثان على انغام الراديو «البك آب»..

وكانت تحب دائما ان تستمع إلى الموسيقى الكلاسيك، وكانت تحتفظ دائما بمجموعة كاملة من مقطوعات بيتهوفن وشوبان وتشياكوفسكى وكورساكوف، ولكن عادل قال يوما وقد ادارت احدى مقطوعات شوبان:

إيه الحاجات العجايزى دى؟!

وانتفضت لسماع كلمة «عجايزى» وكأنها كلمة دخيلة على حوار المسرحية التى وضعتها لنفسها وتقوم فيها بتمثيل دور الصبية، وخرجت فى اليوم التالى واشترت مجموعة كاملة من الألحان الراقصة الحديثة وجلست تنتظر عادل..

وقـال عـادل وهويسـتـمع إلى لحن امـريكى عنيف من هذه الالحان الراقصة الحديثة:

انت ما بتعرفيش ترقصى؟

مش قوى.. ماما كانت محرجة علىّ الرقص!

قومى اعلمك!

وبدأ يعلمها رقصة «السوينج».. ووجدت نفسها تتقاذفها ذراعـاه، ويدور بهـا فى قسـوة وعنف، ويلقيـهـا يمـينا ثم يعـود ويلقيها يسارا، ثم تحرك قدميها مع قدميه فى سرعة مجنونة، كأن الشياطين كلها قد استبدت به فحاول ان يستبد بها.. ولم تستطع ان تجاريه طويلا، فنزعت نفسها منه والقت نفسها فوق الاريكة وهى تلهث متلاحقة الانفاس ويدها على قلبها.

وقالت وشفتاها تكادان تعجزان عن حمل كلماتها:

العلام مش مرة واحدة يا عادل صبرك عليّه.. شويه شويه!

ووقف عادل قبالتها يضحك ملء فيه متباهيا بقوته وشبابه.

وكـانت اذا تركـهـا عـادل، جلست تقرأ فى كـتب ومـجـلات اجنبية لم يكن زوجها يسمح لها بقراءتها.. أو تقلب فى صحف الازياء وتقف طويلا عند ازياء الفـتـيـات اللاتى لا يتـجـاوزن التـاسـعـة عشـرة.. وقد أصـبـحت كل ثيابهـا واسـعـة الاطراف

بسيطة فى تفصيلها مفتوحة الصدر، لتتلاءم مع دور الصبـا، ولم تعد تتحلى بمجوهراتها انما تكتفى بسوار رفيع من الذهب فى معصمها، أو سلسلة رفيعة تنتهى إلى حلية صغيرة مكتوب عليـهـا «مـاشـاء الله» وتدليـهـا فـوق صـدرها.. ثم أصـبـحت لا ترتدى الثـيـاب السـوداء داخل البـيت، انما كـانت تفـضل ان ترتدى «البلوز» ومن تحته سروالا او «شورت» وكانت تحرص على الا تجلس ابدا جلسة طبيعية معتدلة، فهى اما جالسة فوق مقعد وساقاها مطويتان تحتها، أو جالسة فوق حافة الاريكة، أو جالسة وساقاها ممدودتان فوق المائدة، أو جالسة على حافة الشرفة أو النافذة!!

ثم بدأت عندما تخرج من بيتها ترتدى ثيابا قاتمة، ليست سوداء، أو ثوبا اسود تتخلله خيوط بيضاء.. ثم لم تنقض ثمانية اشهر على وفاة زوجها حتى كانت ترتدى كل الالوان..

وهى فى كل ذلك لم تدر شيئا عن ألسنة الناس التى بدأت تطوف حـولهـا، وتروى عنهـا وعن عـلاقـتـهـا بعـادل قـصـصـا يبتكرها خيال لا يرحم ولا يتقى الله..

ولم تدر ان عادل نفسه يروى عنها قصصا ظالمة يتباهى بها امام اصدقائه الفتيان كلما اجتمع بهم حول مائدة البلياردو فى مقهى «بالميرا»..

ولم يكن قد حدث شىء يستحق ان تنطلق به ألسنة الناس أو يرضى خيالهم..

ولكن كان يجب ان يحدث شىء..

فحتى الفتيات فى عمر الصبا تحدث لهن اشياء..

(٤)

وكان يوم..

وجاء عادل إلى بيتها وقد ارتسم فى عينيه معنى جديد.. وكان قد قضى قبل مجيئه بضع ساعات فى مقهى «بالميرا».. المقهى الذى يتلقى جميع شبان ضاحية مصر الجديدة إلى ان يلفظهم رجالا.. وكان اصدقاؤه قد اجتمعوا حوله يتندرون كعادتهم بعلاقته التى تربطه بعليّه، وهو بينهم يدعى الصمت كأنه يصون سرا خطيرا، فاذا ما انتهوا من تندرهم اخذ يجذب اطراف الموضوع مرة اخرى، حتى يعودوا إليه ويرضوا به غروره.

والقى عادل قدح «البيرة» من بين شفتيه وقال وهو يهم بالانصراف:

اما اقوم بأه.. ميعاد الست جه!!

وقال احد الاصدقاء:

حلال عليك يا عم!!

ورد صديق آخر فى لهجة ساخرة

ولا حلال ولا حاجة.. اللى يدور عليه يلاقيه اكبر نتاش فى البلد.. ده بيروح عندها يسمع اسطوانات ويلاعبها البصرة!!

وقهقه جميع الاصدقاء..

ونظر عادل شزرا الى صديقه كأنه يهم بأن يمسك بتلابيبه، ثم اكتفى بأن اغتصب من بين شفتيه ابتسامة، وقال كأنه يحاول ان يحمى سمعة فتاته.

حرام علكيم يا اخوانا.. ما تجبوش سيرة بنات الناس!

وسار عادل يضرب الارض بقدميه كأنه يضرب شيطانا بدأ يوسوس فى صدره، بينما كلمة «نتاش» ترن فى اذنيه، ويرتفع رنينها حتى يصبح كفرقعة الصواريخ.. انه فعلا «نتاش».. انه لم يقرب عليّه ولم يقبلها حتى اليوم قبلة واحدة، بل لم يضغط على يدها كما تعود ان يفعل كلما التقط فى يده كف فتاة.. انما هى تشغله دائما عنها بركوب الدراجات، أو بقيادة السيارة، أو بسمــاع الاسطوانات، أو بالذهاب إلى السـينمـا أو بلعب الشطرنج.. لماذا؟ لماذا لم يقبلها حتى اليوم.. ولماذا يقف عند حد تقبيلها؟ اليس رجلا.. الم تعطه كل الفرص لكل شىء؟ ماذا تقول عنه الآن؟ لابد انها تعتبره طفلا لا يصلح الا لركوب الدراجات!

ودخل عادل الى البيت وفى عينيه هذا المعنى الجديد.. وبدأ كأنه قرر امرا لا رجعة فيه.. وربما لمحت عليّه هذا المعنى فى عينيه، وربما لاحظت ان هناك امرا قرره، ولكنها لم تحاول ان تفسر المعنى أو تكشف الامر، انما استقبلته مرحة ضاحكة كفتاة فى السابعة عشرة، وجرته من يده الى «الصالون» الانيق وهى تقول كأنها تغرد:

اما قريت حتة قصة يا عادل.. جنان.. تعالى اترجمها لك كلها.

ولم يرد عادل وانقاد وراءها الى الصالون..

والتقطت عليّه كتابا فرنسيا كان ملقى على الاريكة، وامسكت به تقلب صفحاته وهى لا تزال واقفة قبالته، وبدأت تروى له القصة، وهى تتمايل وتحرك رأسها ويديها كأنها طالبة فى فرقة التمثيل بمدرسة الليسيه فرنسيه.

ولم يتكلم عـادل.. ولم يعلق بشىء.. انما المعنى الذى فى عينيه بدأ يفسر نفسه، والامر الذى قرره بدأ يتضح.. واحتقنت الدماء فى وجهه كأنه يستجمع شجاعته، واطال النظر اليها وهو يحس بكل عصب من اعصابه ينبض وكأنه يرتجف، بينما هى لاهية عنه خلف الكتاب مسترسلة فى رواية القصة وفى حركاتها التمثيلية.

وفجأة.

خطا نحوها خطوة واحدة، وازاح الكتاب من امام وجهها فى حركة خاطفة، ولفها بذراعيه، وسقط على شفتيها بشفتيه.. وكان هو نفسه قد فاض به الاندفاع والارتباك حتى سال لعابه على شفتيها قبل ان يستطيع ان يبتلعه.

وجذبت عليّه نفسها من بين ذراعيه، وابتعدت عنه خطوتين وفى عينيها دهشة اقرب الى الذهول، وكأنها فوجئت بفصل من فصول القصة لم تحسب حسابه، ولم تستعد له، ولم يخطر على بالها عندما قررت ان تبدآ الحياة من عمر الخامسة عشرة.

وقالت مبهورة الانفاس وهى تمسح لعابه من فوق شفتيها وجانب خدها بظهر كفها:

انت اتجننت يا عادل.. احنا مش اتفقنا نبقى اصدقاء!

واجاب عادل ووجهه لا يزال محتقنا واطرافه لا تزال ترتعش وهو لا يكاد ينظر إليها:

احنا ما اتفقناش على حاجة..

وقالت عليّه فى لهجة حاسمة:

طيب تعالى نتفق من أول دلوقت..

ثم رق صوتها قليلا:

انت مش سعيد بصداقتى.. انا كمان سعيدة بصداقتك!

وقال عادل كأنه ينفجر:

أنا راجل يا عليّه.. والدنيا كلها عارفة انى باحبك!

وارتبكت عليّه قليلا، ونظرت إليه وكأنها تنظر اليه لأول مرة لترى فيه صورة الرجل، ثم قالت وكأنها غير مقتنعة بما تقول:

أنا كمان باحبك.. بس باحبك كصديق.. والدنيا كلها لازم تعرف اننا بنحب بعض كأصدقاء!

ونظر عادل اليها غاضبا، وكأنه لم يعجبه ان تعرف الدنيا ان ليس بينهما الا الصداقة، ثم ادار ظهره لها وقال وهو ينصرف:

خلاص.. دورى لك على صديق غيرى!

ونظرت اليه حائرة وهو يبتعد عنها نحو باب الخروج، وخيل اليها ان صباها الذى توهمته والذى عاشت فيه منذ ثمانية شهور يفلت منها، فجرت وراءه واسمكت بذراعه، وعندما التفت اليها قالت وكأنها تتوسل:

انت زعلت؟ طيب ماتزعلش!

وشبت على اطراف اصابع قدميها وقبلته فوق وجنته قبلة سريعة، اقرب الى قبلة أم.

وابتسمت عينا عادل، ثم لمع فيهما شىء كأنه بريق اعلام النصر، ثم بدأ وجهه يحتقن من جديد، وبدا كأن لعابه يسيل على شفتيه، ثم مد ذراعيه واختطفها الى صدره فى قوة وعنف.. ومرة اخرى سقط على شفتيها بشفتيه..

واستسلمت له قليلا وانفاسها تكاد تختنق بين انفاسه، وعندما حاولت ان تبتعد عنه، كان قد مد كفه ودسها فى طيات شعرها ثم رفع الكف المجنونة وحاول ان يدسها بين طيات ثوبها.. ثم حركها وحاول بها ان ينزع صدرها من فوق عرشه الغالى.. وشفتاه دائما ممسكتان بشفتيها وكأنهما شفتا طفل تعلقتا فى اصبع من الحلوى!

وتمردت..

ودقت صدره بقبضتيها حتى استطاعت ان تنزع اصبع الحلوى من شفتيه وان تفلت من بين ذراعيه، وصاحت وانفاسها المبهورة تلفظ كلماتها:

انت مجنون.. ايه ده.. حد يعمل كده!

وخطا عادل نحوها وذراعاه ممدودتان نحوها، وكأن شيئا لن يستطيع ان يوقفه، فصرخت فيه وهى تبتعد عنه إلى آخر الغرفة:

عادل.. خليك عاقل ياعادل.. ماما زمانها جايه دلوقت!

ويبدو ان «ماما» لم يكن لها حساب كبير لدى عادل، فقد لحق بها فى آخر الغرفة وامسك بكتفيها واسندها الى الجدار بقوة وكأنه سمرها فيه ثم عاد بشفتيه الى اصبع الحلوى!

وكادت عليّه تجن، واخذت تضرب صدره بقبضتيها وتحاول ان تدفعه من امامها.. ولكنه كان قد اصبح كقطعة من الحجر الملتهب لا تعى وانما تنفث النار.

وعندما اعجزه ان يشل ذراعيها اللتين ترتفعان فى وجهه وتدقان على صدره وتحاول بهما ان تزيحه عنها، رفع كفه بكل ما فيها من نار وشباب، وهوى بها على صدغها..

وسكتت عليّه..

وكفت عن المقاومة..

وانهمرت دموعها صامتة فوق وجنتيها..

وشدتها دموعها الى الارض، فسقطت وهى تكاد لا تعى..

....

....

....

....

وحملت دموعها وقامت الى حجرتها صامتة دون ان تلتفت اليه.

والقت بنفسها على فراشها وعيناها تائهتان تريان كل شىء ولا تستطيع ان تتعرف على شىء.. وذهنها يدور ويدور دون ان يلتقط طرف الخيط الذى يقوده الى التفكير فى موضوع معين او فى طريق محدد.

وتنبهت قليلا عندما سمعت صوت الباب الخارجى يصفق وراء عادل.

□□□

وظلت عليّه كما كانت حتى الصباح.. لا تنام ولا تفيق، ولا تستطيع ان تغمض عينيها عن شىء أو ترى بهما شيئا، ولا تستطيع ان توقف ذهنها عن الدوران أو تقوده الى التفكير فى حل.

ظلت كما هى.. وشعرها مهوش فوق رأسها كأن عاصفة قد مرت به وتركته كعصف مأكول.. وثوبها ممزق من فوق جسدها

كأن الزمن قد ابتلاه فبلى تحت سخط الأيام.

ظلت كما هى.. لا تستطيع ان تحرك ساقا، ولا ذراعا، ولا اصبعا.. وكأنها تخشى اذا تحرك منها شىء ان تلمس مصيبتها..

ولكنها لم تستسلم طويلا لهذه الدوامة الهائلة من الخواطر الممزقة التى تمر بها كما تمر سحب الجراد على الشجرة الخضراء لتتركها جرداء يابسة.. وأحست بنفسها تقاوم خواطرها كأنها تقاوم تيارا جارفا لا قبل لها به.. وانكفأت على وجهها تضرب وسادتها بكفيها وتضرب الفراش بقدميها وكأنها تطرد من حولها فئة من الشياطين اجتمعت عليها لتقودها الى بحر الجنون.

وانتفضت واقفة، واخذت تروح وتجىء فى غرفتها واقدامها لا تكاد تستقر على الارض كأنها تخطو فوق لسع النار.. ثم وقفت امام مرآتها.. ونظرت الى نفسها طويلا.

رأت شعرها المهوش فوق رأسها، ورأت ثوبها الممزق فوق جسدها.. ولم تحاول ان تصلح من شعرها أو تبدل ثوبها، انما اخذت تنظر الى نفسها طويلا وكأنها تتحدى هذا المخلوق الجديد الذى يقف امامها لأول مرة:

من انت؟

انا انت!

وماذا حدث؟

لا شىء ذا بال؟

وهذا الشعر المهوش، وهذا الثوب الممزق؟

انك فاتنة!

وهذه الخواطر السوداء؟

لست فى حاجة اليها.. انك تنسين انك امرأة!

انا فتاة.. أنا صبية.. اكاد اكون عذراء!

انك ارملة!

وابتعدت من امام المرآة كأنها تفر من نفسها، والقت بنفسها فوق مقعد، والقت برأسها فوق كفيها وانهمرت دموعها من جديد.

ومن خلال الدموع اتضحت لها الحقيقة التى حاولت ان تتجاهلها خلال كل هذه الشهور الطويلة.. انها ارملة وليست عذراء.. وهى فى الثلاثين من عمرها وليست فى الخامسة عشرة أو السابعة عشرة.. وحتى لو رأت نفسها عذراء فى السابعة عشرة، فإن الناس ومعهم عادل لا يرونها إلا ارملة فى الثلاثين!

ولأول مرة استطاعت ان تواجه حوادث ليلة الأمس.. ووجدت نفسها تقارن بين زوجها العجوز وصديقها الفتى الذى لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة.

لقد كان زوجها يصل إليها رقيقا مهذبا يكاد يغلبه الضعف.

وقد وصل إليها عادل عنيفا قاسيا تستبد به القوة..

ولكنها كرهت الاثنين، وتمنت لو لم يصلا إليها، وتحملتهما رغم انفها وهى تكاد تضيق بهما، وتركاها جثة باردة لا ينبض فيها شىء، ولا تحس منهما بشىء.

ولم يكن لها ذنب فى زوجها..

ولم يكن لها ذنب فى صديقها..

وهدأت قليلا، ولم تحاول ان تقاوم الحقيقة الماثلة امامها، وهى انها امرأة وارملة فى الثلاثين، بل ربما استراحت لهذه الحقيقة ووجدت فيها بعض العزاء لضميرها الذى يولول فى صدرها ويلطم الخدين حزنا على الفقيد الغالى!

وقامت متثاقلة متعبة ووقفت امام مرآتها مرة ثانية لتصلح من شأنها، والتقت بنفسها وهى تمشط شعرها:

كان يجب الا يحدث هذا..

ولكنه حدث!

لن يحدث ابدا مرة ثانية..

حاولى..

سأعود كما كنت!

مستحيل!!

لماذا؟

تذكرى امك!

ما شأنها؟!

هذا الحرمان الطويل، وهذا الصمت الحزين، وهذه الغلالة القاتمة، وهذه الوحدة القاسية.. لن تعودى إلى كل ذلك!

انها سعيدة.

انها بائسة..

سأكون مثلها بائسة..

شبابك.. فتنتك.. جمالك.. لماذا البؤس؟ انك مازلت فى

الثلاثين!

انى حائرة..

اقبلى على الحياة..

اخاف.. لقد سقطت مرة!

لا تدعى الخوف يحرمك من شبابك.. ثقى فى نفسك ولن تسقطى مرة اخرى!

وابتعدت عن المرآة.. وضاع اليوم وهى لا تزال تائهة فى افكارها تطوف بغرف البيت ولا تستقر فى واحدة منها، وهى فى كل ذلك تحاول ان تسترد ثقتها بنفسها، وتحاول ان تحدد طريقها، وقد ارتسم على جانب منه صورة من حياة امها القاتمة، وعلى الجانب الاخر صورة سقطتها مع عادل.

ثم ضاقت من طول التفكير، وبدأت اعصابها تتوتر حتى خيل اليها انها تريد ان تحطم كل ما حولها، بل ان قدمها أصطدمت بالمائدة الصغيرة التى تحمل اناء الورد فرفعت الاناء وحطمته على الارض.. ثم اسرعت الى غرفتها وفتحت دولاب ملابسها.. يجب ان تخرج من هذا البيت.. انها تريد ان ترقص.. تريد شيئا يلهيها عن افكارها، وعن ضميرها وعن نفسها..

وتوقفت قليلا قبل ان تمد يدها إلى الثوب..

اين تذهب..

واستعرضت فى مخيلتها دنياها كلها.. وفكرت فى كل شىء الا ان تبقى فى هذا البيت، ومر بخاطرها كل من تعرفهم الا عادل.. ثم رفعت حاجبيها كأنها وجدت ضالتها عندما تذكرت «حورية هانم».. سيدة ثرية فى الخامسة والاربعين

تعرفها ضاحية مصر الجديدة كلها، وتعرف الكثير عن حفلاتها الصاخبة، وتجمع حولها فريقا من هذا النوع من النساء، وفريقا من هذا النوع من الرجال، وقد قررت ان تستعيض عن الآخرة بالدنيا فجمعت فى بيتها الحور والولدان، واستعاضت عن الشراب الطهور بالويسكى!

ولم تكن حورية هانم تجرؤ على مصادقة والدة عليّه أو على دعوتها إلى منزلها، ولم تكن ايضا تجرؤ على مصادقة عليّه فى حياة زوجها، ولكن بعد ان مات عنها زوجها، بدأت تحييها كلما التقت بها، ثم بدأت تحدثها حديثا عابرا، ثم دعتها مرة ومرتين واعتذرت علية عن تلبية الدعوة.

وربما اعتقدت عليّه ان حورية تستطيع ان تنسيها خواطرها أو ربما اعتقدت انها ستجد لديها كثيرا من الضحك وكثيرا من اللهو مما يلهيها عن أعصابها المتوترة وابتسمت عليّه كأن فكرة «حورية هانم» أكتشاف كبير وابتسمت مرة ثانية ابتسامة لها معنى اخر، كأنها واثقة من نفسها إلى حد أن حورية لن تستطيع ان تفسد من حياتها شيئا.

واتصلت بها بالتليفون:

انا عليّه.. ازيك يا حورية هانم؟

وبدا كأن حورية فوجئت بهذه المكالمة التليفونية ودهشت لها، فقد ارتبك صوتها قليلا:

اهلا وسهلا.. دى فرصة سعيدة قوى.. ازيك يا حبيبتى.

الله انا بقالى زمان ما بشوفكيش.. قلت لما اطمئن عليكى..

انت اللى لا بتسألى ولا حد بيشوفك ولا راضية تزورينا..

بس كنت مشغولة..

طيب ماتيجى تسهرى عندى الليلة.. مافيش حد..

كلهم تعرفيهم!

باذن الله..

صحيح جايه؟!

جايه.. اورفوار..

وقبل ان تلقى بالسماعة سمعت صوت حورية يقول لها فى لهجة طبيعية كأنها لا تقول شيئا مستغربا:

واذا حبيتى تيجيبى عادل بيه معاكى اهلا وسهلا!

وتثلجت كف عليّه فوق السماعة، ولم تدر ماذا تقول، وخيل إليها انها يجب ان تلعن هذه المرأة وتلقى بسماعة التليفون فى وجهها، ولكنها لم تلعنها ولم تلق بالسماعة فى وجهها، فلم يكن فى لهجة حورية هانم ما يثيرها أو ما يجعلها تعتقد انها تتعمد اهانتها.

واجابت فى صوت بارد:

اما اشوف!

ووضعت السماعة..

ووقفت كأنها اكتشفت شيئا جديدا فى حياتها.. ان حورية تعرف علاقتها بعادل، اذن فالدنيا كلها تعرف، وقد اعترف لها عادل بذلك ليلة أمس عندما قال لها: «الدنيا كلها عارفة انى باحبك».. وربما قدر لها الناس السقوط قبل ان تسقط، وربما رووا عنها قصصا كالتى تسمعها عن بعض النساء..

ماذا بقى لها؟!

واحست كأنها تستخف بكل هذا، وعاودها شعور التحدى..

تحدى الناس كلهم والدنيا كلها وكل ما تستطيع الألسنة ان تروى عنها وعن سقوطها.

وبدأت تستعد للذهاب إلى حورية هانم..

ولم تختر فى هذه المرة ثوبا واسع الذيل كثياب الفتيات.. انما اختارت ثوبا اسود ضيقا يضغط على كل قطعة من جسدها كأنه يخشى عليها من ان تتساقط عنها.. ولم تعقص شعرها فى ضفيرة واحدة تدليها فوق صدرها، بل لفت الضفيرة فى سبيكة علقتها فى مؤخرة راسها، ولم تضع هذا الطلاء الخفيف الباهت الذى كانت تبدو به كفتاة فى السابعة عشرة، بل اثقلت من الطلاء فوق شفتيها ووجنتيها، ووضعت «الريمل» فوق رموش عينيها، والقت ظلالا بالقلم الاسود فوق حاجبيها وجفنيها.. ثم اخرجت صندوق حليها، ووضعت فى معصمها سوارا عريضا من الماس، وشبكت فى صدرها دبوسا رائعا تتوسطه حبة كبيرة من الزمرد، وتركت عنقها خاليا تستعيض بنوره عن كل حليه..

وبدت امراة فاتنة..

امرأة فى مثل عمرها.. فى الثلاثين!

ونظرت باعجاب الى صورتها الجديدة المرتسمة امامها فى المرآة.. صورة امراة تتحدى، وقد فاضت بها الثقة فى نفسها حتى لم تعد تخشى التحدى.

والتقطت حقيبتها الصغيرة، ثم عادت والقت نظرة اخيرة على مرآتها وخرجت من غرفتها.

وعندما وصلت إلى البهو، جفلت قليلا قبل ان تخطو إليه..

كان عادل هناك.. وكان السفرجى قد فتح له الباب، ولم

ينبئها بحضوره ثقة منه انها تعرف انه قد حضر، مادام يحضر كل مساء.

وكان عادل مديرا ظهره لها منشغلا فى تقليب بعض الاسطوانات.. فلم يلحظ جفلتها عندما رأته.. وتمالكت هى نفسها ثم تقدمت بخطوات ثابتة وقالت فى صوت لا تبدو فيه رجفة، ولا يبدو فيه شىء مما حدث ليلة الأمس:

بونسوار يا عادل..

والتفت عادل إليها، وعندما رآها فى زينتها الجديدة اخرج من فمه صفيرا طويلا، وقال وعلى شفتيه ابتسامة تحمل كل ما فى شبابه من غرور:

ايه ده كله!

ونظرت إليه فى عينيه نظرة باردة جامدة لا تهتز، واطالت إليه النظر حتى اضطر ان يرخى جفونه فوق عينيه وان يبتلع بعض غروره وقال فى صوت ضعيف وكأنه يشعر ان هناك شيئا قد حدث وان من واجبه ان ينسى الليلة ما حدث ليلة أمس:

الفستان ده شيك قوى.. انا متهيأ لى انى باشوفك لأول مرة!!

ولم ترد عليّه، انما فتحت حقيبتها واخرجت منها مفتاحا ناولته له:

خد.. طلع العربية من الجاراج وانا حاحصلك حالا..

وبدت على عادل بعض الدهشة عندما سمع اللهجة التى تحدثه بها، وقال مرتبكا وقد بدأ يشعر كأنه امام امراة كبيرة.. اكبر منه سنا:

حانروح فين.. ده انا لازم ارجع اذاكر!

وقالت وهى لا تزال تأمر:

بلاش مذاكرة النهارده.. ابقى ذاكر بكره.. واعمل معروف ما تفكرنيش تانى انك لسه تلميذ!

وابتسمت له ابتسامة ضيقة لم تكشف عن اسنانها.. وقال عادل كأنه يعاتبها:

ما احنا كنا بنذاكر سوى لغاية امبارح!

وقالت وهى لا تزال محتفظة بابتسامتها الضيقة المتحدية:

انا خــلاص بطلت مـذاكـرة.. من هنا ورايح تبـقى تذاكـر لوحدك!

وقال عادل وهى يحاول ان يضحك:

كلها كام شهر وابقى فى الجامعة.. ولا اذاكرش!

وخطا نحو الباب يريد الخروج، ثم وقف والتفت إليها:

انت زعلانة منى يا عليّه؟!

وقاطعته فى حسم:

لأ.. مش زعــلانة.. روح طلع العــربيــة قــوام.. حــاخــدك افسحك.. افسحك ازاى اذا كنت زعلانة منك!

وخرج عادل..

وطافت بالغـرفـة تطفىء الانوار.. ثم دق جـرس التليفـون، وسمعت السفرجى يرد، ثم جاءها يقول:

الدكتور خالد يا افندم!

وانتبهت بغتة، واحست كأن يدا تحاول ان تقبض عليها لتخرجها من حياتها، ثم استندت بيدها على حافة مقعد قريب،

وبدا كأنها تفكر وسط ضباب كثيف، ثم قالت بعد قليل فى صوت خافت ضعيف:

قول له الست خرجت!

واطفأت النور..

(٥)

ودخلت «عليّه» الى بيت حورية هانم واستقبلها المجتمعون هناك بأعين دهشة، بعضها يفيض بالاعجاب، وبعضها يرتسم فيها الحسد أو السخرية.

ووقفت تدير بينهم عينيها فى نظرات ثابتة كأنها تتفرج على مجموعة غريبة من المخلوقات اطمأنت اليها بعد ان وضعت بينها وبينهم قضبانا من حديد.. قضبانا صبتها من شعورها الجديد بالثقة فى نفسها..

وبدأت تتعرف على السيدات.. ان بعضهن كن من صديقات الطفولة أو من زميلاتها فى المدرسة.. بعضهن يكبرنها سنا وبعضهن يصغرنها، وقد جاء معظمهن بصحبة ازواجهن، وان كانت كل منهن قد التفتت إلى زوج اخرى، والتفت كل زوج الى زوجة اخر.

وجلست بين كلمات الترحيب والاعجاب، وبدأ الرجال يتسللون اليها ويحوطونها باهتمامهم، بينما حاولت السيدات ان يغتصبن من شفاههن ابتسامات يقذفن بها إليها وهن يذكرنها بأيام الصبا..

وجلس عادل بعيدا عنها مرتبكا مرتجفا لا يستطيع ان يألف ما حوله أو يندمج فيه، يحاول ان يبدو رجلا فيكثر من التدخين ويدعى الوقار، ثم يخونه صباه فيحتقن وجهه وتتثلج يداه ويتلعثم لسانه، بينما نظرات النساء تحيط به وكأنهن يبحثن فيه عما دعا «عليّه» إلى اختياره صديقا لها، والرجال يختلسون إليه النظر متحسرين، ويهمس احدهم فى اذن الآخر: «أمال يا عم.. يستاهل.. صحة وشباب.. مش زينا ياالله حسن الختام»!

وتقدمت حورية وفى يدها كأس:

ويسكى يا عليّه هانم!

ولم ترفض عليّه الكأس، انما تناولتها ووضعتها بجانبها وربما مر الليل كله دون ان تتذوق منها الا رشفة أو رشفتين.

وعندما طاف الكأس بعادل تناوله فى لهفة، وابتلع معظمه فى رشفة واحدة، وكأنه يستغيث به ليساعده على ارتباكه..

وضحكت عليّه كثيرا وحورية تروى لها نوادر الناس، وترسم بلسانها صورا هزلية لنساء ورجال، وضحكت وهى تستمع لمحاولات الرجال التقرب إليها، وضحكت وكل من النساء تصف زوجها وما بينها وبينه من مشاكل عاطفية.. ولكنها لم تضحك عندما سمعت معنى خارجا فى حديث احدهم، انما علا وجهها شىء من الجد والصرامة، وتوارى الحبور من عينيها وانطبقت شفتاها، حتى شعر الرجل صاحب الحديث بالخجل من نفسه وكاد يعتذر، وحتى عرف كل الحاضرين ان عليّه رغم كل ما يتخيلونه عنها تفرض الاحتشام فى الحديث على كل من يتحدث فى حضرتها.

وكاد الليل يطول بعليّه وهى فى ضيافة حورية هانم، لولا

انها لمحت عادل وقد بدأ يترنح فى وقفته بعد ان افرط فى الشراب، وبدأ يقهقه بصوت عال، ويتكلم كلاما مبعثرا.. ثم اتجه إليها وخطواته لا تكاد تحمله، وفى عينيه نظرات جريئة وقد التوت شفتاه فوق ابتسامة عربيدة.. وقبل ان يصل إليها كانت قد وقفت مستأذنة فى الانصراف مادة يدها لتودع حورية هانم.

والتفت عادل إليها دهشا وترنحت الكلمات بين شفتيه قائلا:

ما ادى احنا قاعدين!

ولم ترد عليّه.. وخرجت..

وهز عادل كتفيه وخرج وراءها دون ان يصافح احدا..

وجلست فى مقعد القيادة واحتج عادل:

انتى فاكرانى سكران؟! ابدا والله!

وقالت فى صوت آمر:

لف.. وادخل من الباب التانى..

وجلس عادل بجانبها، وقادت السيارة، لا تتحدث ولا تلتفت إليه.. ومال عليها يحاول ان يقبلها، فازاحته عنها فى قوة:

اقعد كويس خلينى اسوق!

انت بتكلمينى كده ليه.. لازم زعلانه منى!

وقلتلك مش زعلانه.. بس انت اللى ساعات بتحب تزودها قوى..

وقال وهو يضحك ضحكة مخمورة:

وانت ساعات بتنقصيها قوى!

بايخة!

الأبوخ منها انى اقعد جنبك كده من غير حاجة.. انتى فاكرانى ايه؟ عيّل ماعرفش الا ركوب البسكلتات ولعب الشطرنج؟!

لو كنت راجل ما كنتش تتكلم الكلام ده..

لا ياشيخه.. ما عرفتيش لسه اذا كنت راجل ولا لأ..

تحبى اثبت لك تانى انى راجل!

والتفت إليها وعيناه تحاولان ان تزيحا جفنيه المثقلين بالخمر، وقرب وجهه إلى وجهها ورأسه المترنح يكاد يسقط فوق كتفيها، ومد ذراعه والقاه فوق مسند السيارة وراء رأسها، وملأت انفها رائحة الويسكى المنبعثة من فيه..

وثارت الدماء فى عروقها وتجمعت ثورتها فى رأسها حتى خيل إليها انها لم تعد ترى الطريق امامها، وتقلصت اصابعها فوق عجلة القيادة كأنها تحاول ان تنتزعها من مكانها وتحطمها فوق رأسه، ثم ضغطت بقدمها على ضاغط البنزين فانطلقت السيارة كأنها هى الاخرى ثارت مع صاحبتها وتحاول ان تفر بها أو تفر منها..

وقالت من بين اسنانها:

ابعد عنى احسن ورحمة بابا اخش فى شجرة ولا فى فانوس!

وابتعد عنها فى حركة تلقائية، ثم قال كأنه يتحداها أو كأنه يحاول ان يخفف من الخوف الذى يشعر به:

بس وحياتك اختارى شجرة كويسة ولا فانوس عليه القيمة،

علشان ما نموتش فطيس!

وكانت قد وصلت إلى بيته فضغطت على الفرامل ضغطة قوية، فوقفت السيارة وهى تزحف فوق عجلاتها وتصرخ صراخا كأنه العويل، وقالت فى حزم:

اتفضل!!

ونظر إليها عادل مترددا وقال:

مش اوصلك انت الأول علشان ادخل العربية فى الجراج؟!

لأ مرسى..

وفتح الباب ونزل وهو لا يزال يترنح:

طيب بونسوار.. بكره نبقى نتكلم..

ان شاء الله..

انت لسه ز...

وقبل ان يتم كلامه كانت قد اطلقت للسيارة العنان..

ولم تنم ليلتها.. وباتت تبحث تحت وسادتها وبين طيات فراشها وتحت ثيابها عن كرامتها التى خيل إليها انها ضاعت.

وعندما حادثها فى التليفون فى صباح اليوم التالى، القت بالسماعة فى وجهه.

وعندما دق جرس الباب بعد قليل، وجدته امامها..

وصرخت فيه كأنها تطرده من بيتها:

انت جاى تعمل أيه هنا!

وقال فى ضعف ورأسه منكس إلى الارض لا يستطيع ان يرفعه إليها:

جاى اعتذر.. أنا آسف يا عليّه.. اعذرينى أنا كنت سكران،

والذنب مش ذنبى انت اللى خدتينى عند الجماعة دول، وهم اللى سكرونى.

علشان تعرف انك لسه ما بقتش راجل..

ورفع إليها عينيه، وعندما رأى نظرتها الغاضبة عاد ونكس رأسه:

الرجالة ساعات بيسكروا.. وأنا آسف..

مش مهم انك تأسف، المهم انك ما تجيش هنا تانى!

وفى هذه المرة رفع رأسه ولم يخفضها:

بتطردينى من بيتك يا عليّه؟!

ايوه..

ده مش من حقك!!

بتقول ايه!! ده بيتى وأنا حرة فيه..

انما مش حرة فيّه انا..

قصدك ايه..

قصدى انك انت اللى دخلتينى بيتك، وانت اللى خلتينى احبك.. وأنا مش خدامك علشان تدخلينى وقت ما تحبى وتخرجينى وقت ما تحبى.

انا دخلتك كصديق.. وانت اللى ما احترمتش الصداقة.

ونظر إليها طويلا، وبدا كأنه يفكر أو يبحث عن نتيجة سريعة يصل إليها، ثم ارخى عينيه وقال:

انا مستعد من هنا ورايح ابقى صديق!

وطافت عليّه بعينيها فوق وجهه كأنها لا تصدق ما تسمعه، ثم قالت وقد خفتت حدة صوتها:

وازاى اتأكد انك حتبقى صحيح صديق عاقل وطيب؟

جربينى!

وربما لم تجد عليّه مفرا من هذه التجربة، وربما خافت لو اصرت على طرده ان يرتكب حماقة تزيد من شقائها، فقبلتها مضطرة.. وجلسا يحاولان ان يصلا الحديث بينهما فينقطع، ويحاولان ان يسكتا فيخافا ان يثور بينهما الجدل مرة اخرى.. وعندما انصرف عادل لم تسترح، ولم تهدأ، انما احست بافكارها السود تعاودها مرة اخرى، واحست بنفسها حائرة وسط فراغ كبير يحيط بها. فأمسكت بسماعة التليفون واتصلت بحورية هانم تدعوها إليها..

وقبلت حورية هانم الدعوة مرحبة..

□□□

وسارت الأيام..

وأصبحت عليّه الصديقة الحميمة لحورية، وواحدة من السيدات اللاتى يجتمعن دائما فى بيتها، ويشتركن فى الحفلات التى تقيمها.. ولكنها كانت تختلف عنهن جميعا فى انها كانت تفرض احترامها على الجميع، فلم تكن تتبذل ولم تكن تسمح لأحد ان يتبذل معها، ولم تكن تلقى بنفسها فى كؤوس الويسكى انما كانت تكتفى برشفة أو رشفتين ثم تترك الكأس امامها حتى ييأس من اغرائها.

وأصبحت ترتاد مع هذه الجماعة الاماكن العامة، والحفلات الخيرية، وترقص احيانا، ولكنها لا ترقص كثيرا ولا تسمح لاحد عندما يراقصها ان يضع خده على خدها أو يضغطها

بذراعه إلى صدره.

وكثر حولها كلام الناس، واحتاروا فى أمرها.. حتى هؤلاء الذين كانت تصحبهم كانوا فى حيرة منها، وحتى حورية التى أصبحت صديقتها الحميمة لم تكن تعرف عنها أكثر مما يعرفه الناس، فهى لم تكن تتكلم ابدا عن نفسها، ولم تستشر احدا فى مشاكلها، ولم تطلع انسانا على عواطفها.

وربما اعتقد البعض ان هذا التحفظ الذى تبدو به يرجع إلى تعلقها بعادل واكتفائها به وحرصها على مراعاة شعوره، وقد كان عادل يصحبها إلى معظم الليالى، ولكنها لم تبد ابدا مهتمة به ولا حريصة عليه، وهو لم يكن يبدو ابدا كأنه صاحب كلمة عليها او ان له شأنا فى حياتها، انما كان يبدو كأنه مجرد مرافق لها..

ثم بدأ عادل يرتاد هذه الليالى وحده عندما تتخلف عنها عليّه، بعد ان أصبح عضوا معترفا به فى «شلة» حورية هانم، وبدأ بعض سيدات الشلة يسعين إليه، وقد اعتقدن انهن بذلك يكدن لعليّه، أو ربما كان سعيهن وراءه لمجرد التمتع بحرارة شبابه.. وفرح عادل بهذا الاقبال عليه، وبدأ يرضى به غروره ويعوض به ما تصده عنه عليّه.. ولكنه ظل دائما مدعيا تعلق عليّه به محاولا ان يقنع الجميع بانها لا تزال له ولا يزال لها، فكان يهمس فى اذن صاحبة جديدة:

حاسبى احسن عليّه تشوفنا..

او يقول لاخرى:

وبعدين.. انا خايف عليّه تعرف تسود عيشتنا احنا الجوز!

وأصبح عادل يستغل اسم عليّه ليلتقط به النساء، وأصبحت

النساء تلتف حوله معتقدات انهن ينافسن فيه عليّه، وانهن يستطعن به ان يحطمن كبرياءها وتعاليها عليهن والاحترام الذى تفرضه على الجميع.

ولكن عليّه لم تكن تأبه بهن أو به..

ومع مرور الايام لاحظوا انها فعلا لا تأبه به ولا تغار ولا تلقى بالا، فازدادوا حيرة من امرها..

وهى نفسها كانت فى حيرة من نفسها..

انها تعلم انها لا تستطيع ان تندمج فى هذا المجتمع الذى اقحمت نفسها فيه، وتعلم انها لا تستطيع ان تتبذل كما تتبذل نساؤه أو تعبث كما يعبث رجاله.. انها لا تستطيع ان ترقص كما يرقصون، أو تعيش بين الكؤوس كما يعيشون، أو تضحك وتتحدث كما يضحكون ويتحدثون.. انما هى ايضا لا تستطيع ان تستقر فى بيتها ولا ان تخلو إلى نفسها..

انها تفر من شىء..

تفر من عمرها الذى قضته مع زوجها، وتفر من عمرها الذى توهمته وحاولت ان تشرك فيه عادل..

وهى فى فرارها ترفض كل يد تمتد إليها لانقاذها.. ترفض نصائح امها التى تتردد عليها والدموع فى عينيها تتوسل إليها ان تعود وتعيش فى رعايتها.. وترفض نصائح اخيها الذى يئس منها حتى كاد ينكرها.. وترفض الرجال الذين بدأوا يتقدمون إليها خاطبين، بعضهم جاء من بعيد دون ان يسمع عن سيرتها شيئا، وبعضهم سمع واغلق اذنيه عما سمع طامعا فى جمالها ومالها واصلها الطيب، وبعضهم انصفها من السنة الناس ورأى منها ما استعان به على ان يرسم لها صورة

طاهرة لزوجة صالحة..

رفضتهم جميعا دون ان تبدى سببا ودون ان تسأل نفسها عن سبب.. وعاشت فى فرارها من نفسها.. النفس التى تحطمت عندما اكتشفت ان عمرها قد اغتصب منها يوم زوجوها وهى فى الخامسة عشرة رجلا فى الخمسين وعاشت معه محرومة من صباها وشبابها كأنها امرأة فى الاربعين.. ويوم اكتشفت انها أصبحت ارملة وقضى عليها ان تعيش كأمها حزينة، وحيدة.. جافة..

وتعبت من طول الفرار..

أصبحت لا تنام.. وانهكها طول السهر وطول القلق وطول تفكيرها فى حيرتها..

وأدمنت التدخين حتى لم تعد السيجارة تفارق شفتيها الا ريثما تعود إليها.. وذبل لون بشرتها الابيض المشرب بالحمرة، حتى اصبح اقرب إلى الصفرة كأن دماءها قد اختنقت فى عروقها وسط دخان سجائرها..

وعشقها الليل حتى ترك سواده حول عينيها فاضطرت ان تكثر من الطلاء فوق وجهها حتى تخفى آثار هذا العشق الظالم الذى لا حيلة لها فيه.

وبدت أكبر من سنها.. بدت منهكة متعبة عصبية المزاج، فى عينيها نظرة لا تهدأ الا لتغضب، وبين شفتيها ابتسامة لا تستقر، تكاد تعجز عن حملها فتنفخ فيها بضحكة عالية.

ورغم ذلك ظلت فى هذا الجو الذى تعيش فيه محتفظة باحترامها لا تتبذل ولا تعبث..

وخيل إليها انها مريضة..

وبدأت تبحث عن طبيب، ففكرت فى الدكتور خالد..

أو انها فكرت فى الدكتور خالد، فبدأت تبحث عن طبيب!

وكان اسم خالد يتردد امامها كثيرا على شفاه بعض السيدات كأنه امل كبير تتمناه كل منهن وتعجز عن الوصول إليه، وكانت كلما سمعت اسمه التفتت باهتمام دون ان تدرى لاهتمامها سببا، وكانت احيانا تحس انها غضبت وانها تكتم غضبها فى طيات اعصابها للاسلوب الذى تتحدث به النساء عنه، فلم يكن حديثهن عنه كطبيب ولا عن علمه ومهارته، انما كن يتحدثن عنه كرجل، وكانت احداهن تصيح:

يا ختى عليه!

والثانية تهمس:

حقه لو كان جوزى.. ما كنتش الدنيا ساعتنى!

والثالثة تقول:

الصنف ده يفضل يتأنزح كده لغاية ما يقع على دماغه.. وتوقعه واحدة ما تساويش بصلة!

وكانت تسمع كل هذا ثم تعلق بهدوء:

خالد دكتور كويس.. شاطر قوى!

وقد خطر لها خالد فى ليلها الطويل مرات.. وفكرت أكثر من مرة ان تذهب إليه، فكان يشدها عنه دائما شعور لا تدريه، ربما شعور كأنها تتحداه وتتحدى ظنون زوجها عندما اتهمها قبل ان يموت بان بينها وبينه علاقة تثير الشك، وربما شعور كأنها تخجل من نفسها بعد ما طرأ على حياتها، وبعد ان القت عن عمرها ثوب الوقار والحشمة الذى كانت ترتديه..

وقد التقت به مرات فى حفلات وفى مجال عامة.. فكان يحنى لها رأسه من بعيد وعلى فمه ابتسامة طيبة وفى عينيه نظرة ثابتة كأنه يبحث فى وجهها عن شىء.. وقد تصافحا عدة مرات، فكان يسألها:

ازيك يا عليّه هانم؟

ثم يسكت ويطيل النظر إليها بهذه النظرة الثابتة التى تبحث فى وجهها عن شىء.. ثم لا يجد شيئا يقوله، ولا تجد شيئا تقوله، فيفترقان إلى ان تجمعهما صدفة اخرى..

وظل هذا هو كل نصيب خالد من حياتها، إلى ان توهمت انها مريضة، وتمسكت بهذا الوهم واستندت عليه، لتذهب إليه فى عيادته..

وربما فكرت ان تدعوه إليها فى بيتها بدل ان تذهب إليه، ولكنها احست كأن ليس من حقها ان تدعو خالد إلى بيتها، وليس من حق خالد ان يدخل بيتا تقيم فيه وحدها!

وذهبت إليه فى عيادته بميدان الازهار..

ولم تخبر التمرجى باسمها ليبلغه إليه انما انتظرت فى غرفة الانتظار كأى مريضة عادية تنتظر دورها..

وكانت الغرفة مزدحمة بالسيدات، وخيل إليها ان كلهن لسن مريضات وليس فيهن من تشكو شيئا، واحست انها تكرههن جميعا، وكأنها تريد ان تصرخ فى وجوههن: لماذا جئن وهن لسن مريضات؟!

ثم سألت نفسها: هل هى مريضة؟

واستعرضت كل ما تشكو منه، فخيل إليها انها لا تشكو شيئا.. وتحسست بخيالها موضع الكبد والمعدة والكلى فلم

تحس ألما ولا مرضا..

وقوى فى ذهنها انها ليست مريضة..

وفكرت ان تعود..

ولكنها بقيت أكثر من ساعة وهى تفكر فى العودة من حيث اتت دون ان تعود.. انما ظلت تحرق فى سجائرها وترقب كل سيدة يجىء دورها وهى تدخل الى الطبيب فى لهفة كأنها تسرع الى موعد غرام، وترقبها وهى تخرج وعلى شفتيها ابتسامة تكاد تكون آهة ملؤها النشوة والراحة..

وجاء دورها..

وصاح خالد دهشا عندما رآها:

عليّه هانم.. انت بقالك هنا كتير.. ازاى ما تقوليش انك جاية، وازاى ما تكلمينيش علشان اجيلك انا؟!

وقالت عليّه وهى تحاول ان تختصر ابتسامتها:

المسألة ما تستهلش!

ولو.. كان برضه لازم تندهيلى.

يمكن حبيت اشوف عيادتك.. ده اللى يقعد فيها شويه يفتكر انك دكتور امراض نسا..

وضحك الدكتور خالد قائلا:

مفروض ان الجنس الناعم يعيا اكتر من الجنس الخشن.. اتفضلى!

وأشار لها على سرير جلدى فى جانب من الغرفة، فوضعت حقيبتها فوق مكتبه، واتجهت إلى السرير وجلست عليه.

تسمحى!

ولمس كتفها لمسة خفيفة فالقت نفسها فى بطه حتى رقدت على السرير وهى تنظر إليه نظرات صامتة، بينما يطل عليها بابتسامته الطيبة وعينيه الحانيتين والعبير الهادىء المريح ينبعث من حوله ويدغدغ اعصابها..

رقدت.. ولأول مرة منذ وقت طويل تحس بالراحة..

وتتمنى لو استطاعت ان تغمض عينيها وتنام..

واحست به ينحنى فوقها، واحست باطراف اصابعه تلمس صدرها وهو يضع فوقه سماعته فتنبه فيها شىء واحست كأنها تريد ان تضع كفيها فوق صدرها حتى لا يعو، ويلمسه باطراف اصابعه..

ومال إليها برأسه ليتسمع دقات قلبها حتى لامست شفتيها خصلات من شعره، واحست كأنها تزم شفتيها وتخفيهما داخل فمها حتى لا يلمسا هذه الخصلات.

ونزع السماعة من أذنيه وابقاها مدلاة فوق صدره ثم بدأ يتحسس مواضع من جسمها وهو يسألها عند كل موضع: «هنا بيوجعك؟» فتقول «لأ..» وكأنها لا تعنى الألم الذى لا تحس به، بل تعنى بها يده التى تتحسسها.

ثم قرب وجهه من وجهها حتى خيل إليها انه يهم بتقبيلها، وقلب باصابعه جفنيها ليرى لونهما ثم سألها:

انت بتنامى كويس؟

لأ..

وايه كمان؟

لونى مش عاجبنى، واعصابى خسرانه!

وابتعد عنها، وجلس إلى مكتبه، ولحقت به وهى تسوى شعرها بيديها ثم جلست قبالته..

وواجهها بنظرته الحنون وابتسامته الطيبة وسألها فى هدوء وكأنه يحاول ان يخفف وقع السؤال عليها:

انت سعيدة يا عليّه هانم؟

وفوجئت بالسؤال حتى احتقن وجهها وارتبكت وقالت وهى تحاول ان تبتسم لتخفى ارتباكها:

طبيب نفسانى حضرتك؟!

انا اقدر اكتب لك دوا منوم، واقدر اقولك غيرى هوا وما تسهريش ولا تتعبيش نفسك وانت صحتك تتحسن وتعرفى تنامى كويس.. انما كل ده ما ينفعش.. المهم انك تكونى سعيدة علشان تعرفى تنامى واعصابك تتحسن..

وصمتت عليّه برهة ثم قالت:

وامتى الواحدة تبقى سعيدة؟

اما تكون راضية عن نفسها وعن اللى بتعمله؟

ورفعت عينيها إليه كأنها اعتقدت انه اهانها، فالتقت بنظرته الحنون وابتسامته الطيبة، فعادت وارخت عينيها وقالت كأنها تعترف:

واذا ما كنتش الواحدة عارفه ايه اللى تعمله علشان ترضى عن نفسها؟

ما تعملش حاجة.. تفضل ساكتة لغاية ما تعرف!

فيه ناس فضلم ساكتين لغاية ما ضاع عمرهم.. وبرضه ما لقوش السعادة؟

انا عارف انك قعدت ساكتة كتير.. بس كان لازم تسكتى كمان شوية!

مش فاهمة؟

فضلت ساكتـه طول ما المرحـوم جوزك كان عـايش.. مش كده؟

وطأطأت رأسها إلى الأرض وقالت كأنها تهمس:

أيوه.. وما خدتش حاجة من سكاتى!

ولما ما سكتيش بعد ما مات.. خدت حاجة؟

وانتفضت غاضبة:

ارجوك يا دكتور.. دى مش طريقة تكلمنى بيها!

انا دكتور وبعالجك يا عليّه هانم.. آسف اذا كنت حاولت ان يكون العلاج سريع وحاسم!

انا جايه لدكتور باطنى مش لدكتور نفسانى.. أو رفوار!

وقامت.. وقام معها وامسكها من كتفيها بقبضتين قويتين، وقال وهى تحاول ان تتهرب من عينيه، وتحاول فى ضعف اقرب إلى الاستسلام ان تتخلص من قبضتيه:

انا باعتبر نفسى مسئول عنك من يوم ما كنت باعالج جوزك.. وكنت دايما مستنى اليوم اللى تجيلى فيه أو تندهيلى وتقوليلى انك عيانه.. من يوم ما شفتك فى الجنينة بعد ما مات جوزك، وانا عارف انك حتتعبى وانك حتجينى.. ومش ممكن حاسيبك من غير ما اعالجك واتم علاجك..

وسكت..

ولم ترد، انما تمنت لو تركها تلقى برأسها فوق صدره

وتبكى.. وعاد يقول لها وقد هدأ صوته وتخللته نبرات الحنان:

ارجوكى تثقى فيّه يا عليّه هانم.. انا مش بس دكتور.. انا صديق.. وبكره تعرفى صداقتى أد إيه..

وهدأت عليّه، وهدأت قبضتاه اللتان تمسكان بكتفيها، وقالت فى صوت كهمس الدموع:

انا تعبانه يا دكتور.. زهقانه من نفسى.. بيتهيأ لى ان ما ليش حد فى الدنيا.. مش عارفه اروح لمين ولا أعمل ايه..

اللى حيعالجك الصديق مش الدكتور.. كل اللى اطلبه منك انك تثقى فيّه..

انا طول عمرى باثق فيك، ولاّ ما كنتش جيتلك!

وتسمعى كلامى..

حاضر..

ولازم اشوفك كل يوم..

امرك يا دكتور..

ده امر صديق قبل ما يكون..

يعنى آجى بكره..

وابتسم خالد ولم يجب، وجلس إلى مكتبه وكتب فوق دفتر الوصفات الطبية بضع كلمات، ثم نزع الورقة وطواها قبل ان يعطيها لها ثم قال:

دى أول روشتة.. بس اقرئيها كويس قبل ما تروحى بيها للاجزاخانة!

وابتسمت عليّه وقالت فى استسلام:

حاضر..

وخرجت وخالد ينظر إليها حتى اختفت من الممر الطويل الذى يقع امام غرفته، وقد اتسعت ابتسامته الطيبة حتى كادت تطير به..

ولم تنظر عليّه إلى غرفة الانتظار التى مرت بها، ولم تر التمرجى وهو ينحنى لها مودعا، ولم تفكر فى ان تمنحه «البقشيش» المعتاد.. وما كادت تصل إلى باب العيادة وقبل ان تدخل إلى المصعد، فتحت الورقة المطوية فى يدها وقرأت:

«غدا.. الساعة الرابعة.. حديقة ميناهاوس»!

وبدا كأنها ستثور، وتقلصت اصابعها فوق الورقة كأنها تحاول ان تمزقها.. ولكنها غيرت رأيها، وارتدت الابتسامة إلى شفتيها، وهدأت اصابعها فوق الورقة، وخيل إليها ان السحاب بدأ ينقشع.

وتنبهت على صوت عامل المصعد:

اتفضلى يا افندم..

وتفضلت..

وخيل إليها ان المصعد يصعد بها..

(٦)

ولم تنم ليلتها..

ولكنها لم تكن تعسة..

كانت تفكر، وكان كل شىء فيها كان يفكر.. عيناها وشفتاها وانفها، وكأنها تسمع حفيف افكارها بأذنيها..

ولأول مرة تحس انها وجدت شيئا تفكر فيه ويستحق التفكير وتحس بذهنها المشتت وقد تجمع وانحصر فى نقطة واحدة، ثم سرى فى خيط واحد، وارتسم امامه شخص واحد خالد!

وابتسمت وهى تستعيد فى ذهنها ابتسامته الطيبة التى استقبلها بها..

وتنهدت وهى تتصوره منحنيا عليها يتسمع دقات قلبها بسماعته، وتحسست بيدها موضع السماعة فوق صدرها، كأنها تتلمس ذكرى حبيبة تخشى ان تضيع..

وتاهت نظرتها وصوت سؤاله يرن فى اذنيها: هل انت سعيدة؟

ثم عبست وهى تستعيد كلامه: ما قعدتيش ساكتة ليه بعد ما مات جوزك؟

ثم اتسعت ابتسامتها وهى تتذكر «الروشتة» التى كتبها لها: «غدا.. الساعة الرابعة.. حديقة مينا هاوس»!

ومدت يدها تحت وسادتها واخرجت «الروشتة» واخذت تقرأها ربما للمرة العشرين.. ثم.. ثم توقفت ابتسامتها قليلا فوق شفتيها.. ثم اختفت الابتسامة فجأة كأن يدا قاسية قد امتدت إليها وخنقتها، وانطبقت شفتاها فوق موجة من الغضب، وطافت بوجهها سحب مكفهرة، وارتفع امامها سؤال لا تريد ان تجيب عليه:

لماذا كتب لها هذه الورقة؟

ولماذا يريد ان يقابلها فى مينا هاوس؟

ربما يعتقد فيها ما يعتقده بعض الناس.. ربما ظن انها

امرأة سهلة مبتذلة يسهل على كل رجل ان يحدد لها موعدا، ويسهل عليه ان ينال منها ما يريد!

انه يقول انه يعالجها!

هل هذه طريقة العلاج؟

هل تعود الاطباء ان يقابلوا مرضاهم فى مينا هاوس!

لقد تجرأ عليها.. لقد اهانها.. كان يجب ان تثور فى وجهه، بل كـان يجب ان تعـود إليـه - بعـد ان قـرأت هذه الورقـة - وتصفعه.. ماذا يظن بها هذا المتكبر المغرور؟!

وظلت ساعة تتخبط وسط هذه السحب القاتمة.. وقد اظلمت الدنيا فى عينيها، وتقلصت اصابعها فوق وسادتها وكأنها تقلصت فوق عنق خالد، وتمنت لو انه كان امامها لتنهال عليه صفعا حتى تنتقم لكرامتها المهانة..

وتصورته وقد وقف امامها..

هل تصفعه؟

ولحت بخيالها ابتسامته الطيبة وعينيه يملأهما الحنان، فاحست بالسحب القاتمة تنقشع من امام عينيها، وبأصابعها المتقلصة فوق الوسادة تنبسط وتهدأ، واحست بابتسامتها تعود بطيئة خجلة كأنها تخاف من شفتيها!

وتساءلت وكأنها تهز كتفيها بلا مبالاة: ولماذا لا تقابله وتذهب إلى موعده؟!

انها منذ تعرفت بحورية هانم وهى تقابل رجالا، اشكالا والوانا، فلماذا لا يكون واحدا منهم.. حتى لو لم يكن قصده علاجها، فماذا يضيرها لو جلست إليه واستمعت له وعرفته

اكثر مما تعرفه؟!

مم تخاف؟

الا تثق بنفسها؟!

وظلت تطوف بهذه الفكرة، أو هذه الفكرة تطوف بها.. وهى فى خلال كل ذلك تحس بنفسها كما لم تحس من قبل.. تحس بكل قطعة من جسدها:

لم تعد هذه الذراع مجرد قطعة منها تتدلى بجانبها، انما أصبحت قطعة تحس بها وتحس بالدماء تجرى فيها، وتحس انها قطعة غالية، ربما لانها اكتشفت انها تستطيع بها ان تتعلق بذراع خالد، وتستطيع ان تحيط بها عنقه، وتستطيع بها أن تضمه إليها..

ولم يعد هذان النهدان مجرد شيئين فوق صدرها، انما هما كنز الحياة، تحس باستدارتهما، وتحس بهما وقد ارتفعا فوق عرشهما العالى، وتحس بجمالهما وتكاد تلمس الحرارة فيهما، ربما لانها أصبحت تعدهما لتهبهما لرجل، واصبح من حقهما ان يلمسا صدر خالد، وان يضغطهما إليه، وان يسيطر على عرشهما.

ولم تعد شفتاها مجرد مخرج لحديثها، انما أصبحت تحس بهما كمحطة استقبال فى انتظار رسالة هامة، وأصبحت تحس كأن شفتها العليا تقبل شفتها السفلى، وكأن كلتيهما تتدربان استعدادا للقبلة الكبرى.

كانت تحس بنفسها كما لم تحس من قبل.. تحس بكل قطعة من جسدها.. بل انها، وبعد هذا العمر الطويل، بدأت تحس انها انثى.

وطغى عليها هذا الاحساس دون ان تلتفت إليه أو تتبه إلى جدته عليها، انما كان كأنه احساس طبيعى هادىء لذيذ كأنفاسها.

ونامت وبين عينيها حلم جميل.

واستيقظت وكأنها ترى الدنيا لاول مرة.. ولم تر فى يومها كله إلا الساعة الرابعة، ولم تر فيه مكانا الا حديقة ميناهاوس..

وفتحت دولاب ملابسها فى الساعة العاشرة صباحا لتنتقى الثوب الذى ترتديه، وقلبت فى حقائبها الصغيرة لتختار الحقيبة التى ستمسك بها، وقلبت فى مناديلها الكبيرة لتختار المنديل الملون الذى يتفق مع لون الثوب، وفتحت صندوق الحلى لتقرر اى الحلى تختار.. وهى فى كل ذلك لا تذكر الا الساعة الرابعة وحديقة ميناهاوس، وتتنقل فى ارجاء حجرتها سعيدة خفيفة كأنها ملاك من نور يتنقل فوق قطع صافية من السحاب، وتترنم فى صوت خفيض يكاد يرتفع حتى يصبح غناء.

وفى الساعة الثانية عشرة وقفت امام المرآة تمشط شعرها.. ونظرت إلى نفسها طويلا، ترى خطوط جمالها وكأنها تراها لأول مرة، وتمسك بخصلات من شعرها تتحسسها فى كفها وكأنها لم تكن تدرى ان لها شعرا بمثل هذه الغزارة وبمثل هذه النعومة، وبمثل هذا الغنى فى الجمال.

وكأن السعادة قد فاضت بها حتى عجزت عن حملها، فقد القت المشط من يدها وكفت عن الترنم، وعلا وجهها شيء من الجد، وتنهدت كأنها تستغيث من نفسها، وعادت تفكر كما كانت تفكر فى ليلها: لماذا تذهب إليه؟

وعادت تتصور انه اهان كرامتها، وانه اعتبرها امرأة سهلة، وانها لا يجب ان تذهب إليه لمجرد انه حدد لها موعدا.. وحاولت ان تطرد هذا الخاطر من ذهنها، ولكنها كانت كلما طردته عاد إليها، وكلما حاولت ان تفر منه لحق بها..

واتخذت قرارا صممت عليه: ستذهب!

وعادت تكمل زينتها، ولكنها لم تعد تترنم، ولم تعد سعيدة خفيفة تتنقل كأنها ملاك من نور، انما داخلها شعور كأنه الخوف والرهبة، ولاحظت ان يدها ترتعش حتى سقط أصبع «الروج» من بين اصابعها وكادت تتحطم زجاجة من زجاجات العطر، وخيل إليها ان قلبها يهوى فى صدرها حتى كاد يسقط تحت قدميها، ويرتفع حتى يكاد يقفز من بين شفتيها..

ولم تستطع ان تتناول شيئا من غدائها، انما جلست إلى المائدة وحيدة صامتة تدخل فى فمها اشياء لا تعرف ما هى.. وخيل إليها انها قضت مدة طويلة جالسة إلى مائدة الغداء فهبت مسرعة إلى مرآتها.. وعادت إلى زينتها، وعندما نظرت إلى ساعتها، لم يكن الوقت قد تجاوز الثانية.

والقت بنفسها على مقعد وامسكت باحدى المجلات تحاول ان تقرأ، واحست انها تعبة منهكة، وان يديها باردتان، واحست ان التعب والانهاك قد افسد زينتها، وان وجهها لابد قد غرق فى صفرة، وان لون شفتيها قد بهت، وان ثوبها لابد قد تهدل وتثنى فوق بدنها، وهمت ان تعود ثانية إلى مرآتها ولكنها احست بثقل فى اطرافها، وخيل إليها انها لن تستطيع ان تقوم من مكانها..

لقد كان أول موعد غرام فى حياتها..

هل هو موعد غرام؟

انها لا تدرى، ولا تريد ان تدرى.. ولكنها تتمنى لو لم يكن هذا الموعد، ولم يكن هذا الرجل..

ولمحت عقارب الساعة تحدد الثالثة.. هل تذهب الآن؟

ان المسافة بين مصر الجديدة وميناهاوس تستغرق ساعة على الاقل، ولكنها يجب ان تتأخر قليلا.. لن تخرج من بيتها قبل الساعة الثالثة والنصف!

وقامت قبل ان تمر خمس دقائق كاملة.. وربما كانت هذه الدقائق الخمس اطول من ساعة كاملة.. والقت نظرة اخيرة على مرآتها، لم يكن فيها هذا الاهتمام ولا هذه العناية التى كانت تبديها فى الصباح.

وقبل ان تخطو نحو الباب دق جرس التليفون، وترددت قبل ان تلتقط السماعة، ثم التقطتها بيد لا تحس بها.

وارتجفت يدها وهى تسمع صوته:

عليّه هانم.. أنا خالد..

وقالت فى صوت مرتعش:

بونجور يا افندم..

انا كنت خايف تكونى نزلت من البيت.. أنا آسف جدا مضطر أأخر الميعاد.. لازم ازور عيان دلوقت حالا.. حالته خطرة جدا.. حاتصل بيكى أول ما اخرج من عنده..

واحست كأنها ستقع على الارض، واستندت على الحائط حتى لا تقع، وطاف بذهنها انتظارها الطويل الذى صبرت عليه منذ الصباح، وخيل لها انها لن تستطيع ان تنتظر دقيقة واحدة

اخرى، بل خيل إليها انها ستجن لو حاولت ان تنتظر، وانها تريد ان تفر كما قضت عمرها كله فى الفرار من نفسها..

وبذلت كل قواها حتى تمالكت اعصابها وقالت فى صوت بارد يكاد يفضحها، وهى تتظاهر بعدم المبالاة:

مش فاهمة.. ميعاد ايه يا دكتور؟!

ميعادنا النهارده.. الساعة اربعة فى ميناهاوس!

تقصد الروشتة؟!

ارجوكى يا عليّه.. انا مستعجل.. الراجل حيموت!

وانا مالى يا دكتور.. انا اخرتك عنه!

عليّه.. وحياتى عندك ما تكلمينيش بالشكل ده.. ماكانش فيه حاجة فى الدنيا تقدر تأخرنى عنك.. لكن انا دكتور يا عليّه ولازم تقدرى واجبى!

وصرخت فيه رغم ارادتها:

لو كنت انت بتقدر واجبك ما كنتش ادتنى ميعاد علشان تعالجنى فى مينا هاوس!

وصاح خالد كأنه اصيب بطعنة:

عليّه!

وقالت عليّه وقد ضعف صوتها كأنها تناجيه أو كأنها تحادث نفسها، وهى لا تدرى انها بدأت تبكى وان سماعة التليفون تلتقط دموعها:

مين قالك انى كنت جاية فى الميعاد.. مين قالك انى قعدت طول الليل امبارح افكر فيك.. مين قالك انى قاعدة من الصبح اختار الفستان اللى حلبسه لك.. مين قالك انى مش قادرة اتلم

على نفسى من ساعة ماشفتك، ومن ساعة ما قريت الروشتة.. اللى قالك كده كداب.. ستين كداب.. انا ماكنتش جاية، وما كنش ممكن آجى.. انت جـرىء اللى تكتب روشـتـة زى دى.. اورفوار يا دكتور، وما تخافش عليّه، انا مش عيانه للدرجة دى!

ورفعت سماعة التليفون من فوق اذنها وانزلتها ببطء الى مكانها وصوت خالد يصل إليها وهو يصرخ:

عليّه.. عليّه..

وعندما وضعت السماعة فى مكانها، القت نفسها فوق مقعد وانفجرت فى البكاء، وكأنها تذرف من عينيها عمرها كله.

□□□

وهدأت اعصابها على شاطىء دموعها، وشعرت كأنها بدأت تسترد انفاسها بعد ان جرت شوطا بعيدا استغرق يوما كاملا وهى تجرى.. وبدأت تسائل نفسها من جديد:

لماذا تبكى؟

لقد اعتذر عن موعده.. لماذا لا يعتذر؟ واى حق لها عليه يمنعه من الاعتذار؟ انها واحدة من مريضاته.. انها «حالة» يعالجها كطبيب، ومن حقه كطبيب ان يقدم مريضا على آخر، وان يقدم «حالة مستعجلة» على حالة تستطيع الانتظار!

ما الذى يدعوها إلى الاعتقاد بأنها أكثر من مريض وأكثر من حالة؟!

ربما كان الموعد الذى حدده لها فى ميناهاوس هو فعلا جزءا من العلاج!

وقد قال لها انه صديقها قبل ان يكون طبيبها.. وربما كان

صادقا فى قوله، وربما كانت صداقته التى وعدها بها لا تعدو ان تكون نوعا من الدواء ينصحها به، إلى ان تشفى ثم يحرمها منه!

واستعرضت الكلام الذى قالته له فى التليفون.. كيف استطاعت ان تقول له كل هذا الكلام.. اين كان كبرياؤها، واين كان حياؤها، واين كانت عزتها؟ انها كادت تعترف له بكل ما حدث لها منذ حدد لها موعده، بل انها اعترفت فعلا، وربما لمح دموعها خلال اعترافها..

وغطت وجهها بيديها كأنها لا تريد ان ترى ما بداخل نفسها، ولا تريد ان تحس بنفسها وضميرها يمزق صدرها، وتمنت لو استطاعت ان تسترد كل كلمة قالتها وتبتلعها من جديد، بل تمنت لو لم تولد وتعيش حتى تنهار اعصابها هكذا امام رجل..

لابد انها مريضة باعصابها..

ولم تشعر انها مريضة قدر ما تشعر الآن، ولم تشعر انها فى حاجة إلى طبيب قدر حاجتها الآن.. اى طبيب.. بل خالد بالذات؟!

ولكن اين خالد.. انه ذهب ولن يعود بعد ان طعنته فى شرف مهنته واتهمته بانه لا يقدر واجبه..

اين خالد.. انها تريده.. تريده الآن.. تريده كطبيب لا كصديق ولا كأى شىء آخر.. طبيب يريحها من اعصابها، ويريحها من افكارها السود..

وقامت تطوف بغرف البيت كأنها مجنونة، وصورة خالد تقفز من امامها ومن خلفها وتلاحقها فى كل خطوة. وخيل

إليها انها تريد ان تصرخ كما يصرخ المجانين، بل خيل إليها انها فعلا تصرخ بلا صوت.. وفتحت الراديو ورفعت صوته إلى أخره حتى طغى على صوت صراخها.

ودق جرس التليفون..

والتقطت السماعة فى لهفة كأنها تنتظر نجدة..

وسمعت صوت عادل..

وارتسمت على وجهها صور من الامل الخائب، ولم تلتقط اذنها كلمة مما كان يقوله لها، انما قالت فى صوت خفيض يائس:

تعال..

قالتها كأنها تودع الدنيا..

ودخلت إلى غرفتها، ووقفت امام مرآتها تخفى آثار الدموع من عينيها ومن فوق وجنتيها، وخيل إليها وهى تنظر إلى مرآتها انها شاخت فى يوم واحد عشر سنوات..

وجاء عادل وقال ضاحكا:

حانخرج ولا حنقعد؟!

وقالت وهى تنتزع الكلمات من بين شفتيها:

لأ.. خارجين!

ونظر عادل إلى وجهها مليا وقال وقد سحب ابتسامته:

مالك.. حصل حاجة؟!

وقالت فى عصبية حادة:

ما حصلش.. هو انت كل ما تشوفنى لازم يكون حصل حاجة؟!

بس شايفك مش طبيعية.. انت كنت عيانه.. حاسة بحاجة؟!

واشتدت عصبيتها:

يا اخى ما فيش حاجة.. هو لازم اكون يافرحانه يا زعلانه.. لا أنا فرحانه ولا أنا زعلانه.. كل اللى حصل انى ما نمتش كويس امبارح!

طيب ما تشخطيش فيّه كده.. انت ما نمتيش يبقى أنا ذنبى ايه.. الحق علىّ اللى باطمن عليكى.. على فين ان شاء الله؟!

اى حته..

نروح لحورية؟!

ولم ترد عليه انما خرجت وخرج وراءها، ووقفت فى انتظار المصعد وهى تدق الارض بقدمها.. وجاء المصعد، وفتحت ابوابه وهمت بالدخول.. ثم تراجعت وقد تثلجت اطرافها ولم تعد ترى الا وجه خالد وكأنه صورة معلقة فى الهواء..

وقال خالد وهو يلتقط يدها المثلجة فى يده وابتسامته الطيبة تدثرها وتشعرها بالدفء:

الحمد لله.. أنا حظى كويس معاكى.. دى تانى مرة النهارده الحقك قبل ما تخرجى..

ونظر إلى عادل من طرف عينه نظرة خاطفة ثم تجاهله وعاد يقول لعليّه:

تسمحى نرجع تانى..

وقالت عليّه وهى لا تزال فى وقفتها وكأنها سمرت فى مكانها وطافت بوجهها سحابة فى لون الشفق تبشر بظهور النور، وقالت مرتبكة وهى تضغط بيد على الاخرى:

قال وهو لا يزال يدثرها بابتسامته:

خمس دقايق بس.. اطمن فيها على صحتك!

بس.. اصل..

● وتنبهت إلى وجود عادل فزاد ارتباكها وقطعت حديثها، وقالت وهى تقدم احدهما إلى الآخر:

عادل بيه.. الدكتور خالد!

ومد عادل يده مرحبا:

بونسوار يا دكتور..

تلقى خالد يده فى برود:

اهلا وسهلا!

وساد الصمت ثلاثتهم برهة وهم لا يتحركون من اماكنهم، وعليّه لا تزال فى ارتباكها، ولا تزال تضغط يدها بالاخرى، ثم خيل إليها ان من واجبها ان تقطع هذا الصمت، فقالت وهى ترفع عينيها فى تردد إلى خالد:

وازاى صحتة دلوقت؟!

وظهرت الدهشة على وجه خالد وكأنه يحاول ان يتذكر الشخص الذى تسأل عليه عن صحته، ثم قال وقد اعجزه التذكر:

مين؟!

وقالت فى لهفة كأنها تسأل عن عزيز لديها:

العيان اللى كان حيموت!

واتسعت ابتسامة خالد حتى كاد يضحك وقال وهو يفتعل الجد:

كويس الحمد لله.. على الاقل مش حايموت النهارده!

ثم اشار لها بيده الى باب الشقة فى رجاء:

تسمحى..

ونظرت الى عادل ثم عادت تنظر إليه ولم تتحرك من مكانها فاستطرد خالد قائلا:

اظن عادل بيه ما عندوش مانع اننا نرجع نقعد فى الشقة شوية.. صحتك أهم من كل حاجة.

وقال عادل فى صوت مرتفع ضاحك كأنه يحاول ان يبدى اهميته فى حياة عليّه:

والله يا دكتور انا كنت لسه باسألها عن صحتها دلوقت فزعلت منى.

ونظر إليه خالد من تحت جفنيه وقال وكأنه يعنيه:

دى صحتها مش كويسة ابدا!

ثم التفت إلى عليّه وهو يهز حقيبة أدواته الطبية فى يده كأنه ملّ هذا الانتظار وقال فى حزم:

تسمحى يا عليّه هانم..

والتفتت عليّه إلى عادل وقالت كأنها تتودد إليه:

اسبقنى انت يا عادل عند حورية هانم.. وأنا حاحصلك أول ما يخلص الدكتور!

وقال عادل راضيا:

حاضر!

ومد يده إلى خالد مصافحا، وصافحه خالد كأنه لم يكن هناك لزوم لهذه المصافحة، ثم دخل الى المصعد ومدت عليّه

ذراعها تساعده فى غلق الباب على نفسه.. ونزل به المصعد، وتلكأت عليّه برهة كأنها تريد ان تطمئن إلى انه نزل من حياتها!

والتفتت إلى خالد وهى لا تكاد تنظر إليه ثم سارت الى شقتها وسار خلفها، وخيل إليها انها ترتبك فى خطواتها حتى أصبحت تهتز فى مشيتها، وخيل إليها انها لا تستطيع ان تسيطر على ساقيها حتى لا يهتز جسدها مع خطواتها.. ولم يكن جسدها يهتز، ولكنه وهم صوره لها ارتباكها!

واشارت الى مقعد وقد اصبحا فى حجرة الاستقبال داخل الشقة:

اتفضل..

ولم يجلس خالد على المقعد الذى اشارت إليه بل جلس على الاريكة دون ان يبدى اهتماما باشارتها.. ونظرت عليّه إليه ثم اختارت لنفسها ابعد المقاعد عنه.

ولم يدر احد منهما من اين يبدأ، واحاط بهما الصمت برهة وخالد يفحصها بعينيه كأنه يبحث فى وجهها عن شىء، وهى لا ترفع عينيها إليه، الى ان قالت وكأنها تستعين بالله على الكلام:

أنا آسفة يا دكتور على الطريقة اللى كلمتك بيها فى التليفون.. أنا ما..

وقاطعها خالد بصوته المليء الحنون:

ما فيش داعى للأسف ابدا.. أنا عارف انك عيانة!

ورفعت عينيها فى غضب مفاجيء وقالت وكأنها تتبرأ من تهمة يلصقها بها:

أنا مش عيانة.. صحتى كويسة والحمدلله!

وقال لها وصوته يصل إليها هادئا حتى يتخلل اعصابها:

لو جيتى جنبى هنا اقدر اقولك اذا كنت عيانة ولا لأ.. مش ممكن اكشف عليكى وأنا بينى وبينك عشرة امتار.. لسه ما استعملوش الرادار فى الطب.

وقالت وصوتها لا يكاد يرتفع:

برضه مصمم!

ثم قامت على استحياء كأنها عروس صغيرة تخطو الى عريسها فى ليلة الزفاف، وجلست عند حافة الاريكة التى يجلس عليها، واستدار إليها قائلا:

أنا مش قادر اتصور ازاى الدكتور يقدر يتجوز.. وازاى يلاقى واحدة تستحمله وتستحمل مواعيده الملخبطة اذا كان ما فيش عيانة بتستحمله!

وقالت وكأنها غضبت:

قلتلك يا دكتور أنا مش عيانة.. انت اللى عاوز تعيينى بالعافية.. اتفضل اكشف على قلبى وعلى كل حتة فيّه وانت تعرف انى بمب.. امسك الخشب!

وقال خالد وكأنه يزيح عن عينيها الغمام:

العيا مش فى القلب دايما.. ولا فى المعدة ولا فى الكبد ولا فى الجسم كله.. وأؤكد لك ان حتى اعصابك مش تعبانة.. انما عياكى فى حياتك نفسها.. فى عمرك.. والعيا اللى يصيب العمر يبقى احيانا اخطر من عيا القلب والمعدة والكبد مع بعض..

وقالت عليّه وهى تنظر إليه متسائلة وكأنها تهمس لنفسها:

حياتى.. عمرى.. عمرى عيان ازاى يا دكتور؟

عمرك اتلخبط.. ما خدش سيره الطبيعى..

وعرفت منين؟!

من يوم ما شفتك وأنا باعالج جوزك..

ازاى؟!

كنت ست جد خالص اكتر من اللازم.. واكبر من سنك.. عمرى ما كنت اشوفك تضحكى، أو تتسلى، أو تسمعى راديو، أو تتكلمى كلمة فارغة واحدة أو تتكتى نكتة حتى ـو كانت بايخة.. دايما مكشرة، ودايما تتكلمى جد، وتمشى تدبى زى ما تكونى عسكرى بوليس.. وما كانش فيه داعى لده كله، كان مرض زوجك لسه ما بقاش خطير، وكانت الدنيا كلها بتضحك حواليكى.. غنية، وجميلة، ومحبوبة، ومش ناقصك حاجة، يبقى ايه لزوم التكشيرة دى.. خلتينى اقعد افكر فيكى زى ما اكون بقرأ كتاب مش فاهمه..

فكرت كتير!

واستطرد كأنه لم يسمع مقاطعتها:

فكرت كتير قوى.. يا ترى الست دى مكشره ليه، ومالها بتلبس كده زى العواجيز، وعاملة شعرها زى الصورة بتاعة ستى الله يرحمها!.. وكنت عرفت انك اتجوزت وعندك خمستاشر سنة، وان جوزك كان عنده خمسين سنة، وان من يوم ما اتجوزك ما سبكيش لوحدك ابدا.. ما كنتيش تخرجى الا معاه، ولا تزورى حد الا معاه، وكان ياخدك يقعدك فى العزبة بوزك فى بوزه ست أشهر فى السنة.. كل ده عرفته من

قرايبك وصاحباتك.. واستنتجت انه لازم معيشك زى عيشته، وانه سيطر عليك لغاية ما خلى عقليتك زى عقليته، وتفكيرك زى تفكيره، وحركاتك زى حركاته، ومزاجك زى مزاجه.. يعنى نط بيكى من سن خمستاشر سنة لسن الخمسين مرة واحدة.. وخلاكى عايشة زى امى كده!

وقالت فى خفر:

ما تبالغش يا دكتور..

مافيش فى كلامى مبالغة ابدا.. يمكن امى كانت ايامها اصغر منك شوية، على الاقل كنت باسمعها ساعات بتضحك ولا بتغنى مع الراديو!

وقالت فى صوت خافت حزين كأنها تستعرض فيلما سينمائيا يصور حياتها تصويرا صادقا:

ده صحيح!

وعاد خالد يقول:

وبعدين..

وسكت قليلا، وتنبهت عليّه كأنها تخشى ان ترى صور الفصل الثانى من فيلم حياتها، وقالت فى رجفة وهى تنظر إليه بعينين حائرتين كأنها تتوسل إليه ان يرفق بها:

وبعدين ايه..

واستطرد خالد وقد تباطأت كلماته فوق شفتيه وازداد صوته عمقا..

وبعدين جوزك مات الله يرحمه، وتنبهت لنفسك، خرجت من دنيا العواجيز اللى كان معيشك فيها، وعرفت انك ما تمتعتيش

بعمرك، وان قطار الحياة ما وقفش بيكى على محطات شبابك.. وخدك زى الاكسبريس لآخر محطة فى عمرك.. وقفت حيرانة مش عارفة تعملى ايه ويمكن عيطتى زى البنت الصغيرة التايهة بتدورى على شبابك وخايفة يكون ضاع وما تلقهوش.. وبعدين قررت انك تاخدى الاكسبريس نفسه وترجعى بيه لغاية المحطة اللى ركبتيه منها.. ونزلت منه فى محطة خمستاشر سنه، وابتديتى تعيش اصغر من سنك بعد ما كنت عايشة أكبر من سنك.. ابتديتى تركبى بسكلتات وتلعبى مع العيال الصغيرين، ومين عارف يمكن كنت بتنطى حبل وتلعبى استغماية.. وابتدت الناس تتكلم عليكى.

وسكت خالد..

وكانت عليّه واجمة تنظر إلى بعيد.. إلى لا شىء.. وقد تجمعت خواطرها فى دموع استقرت فوق رموش عينيها وخذلها الضعف فلم تنحدر فوق وجنتيها، وقالت فى صوت محشرج كأنه من ابعد ايام عمرها:

ولما عرفت ده كله، ما لحقتنيش ليه.. ماجيتش تعالجنى ليه قبل الناس ما تتكلم عنى؟!

وعاد الصوت المليء البطيء يقول فى أسف وحسرة:

ما كنش ممكن اقدر اعالجك.. اللى حصل كان لازم يحصل، كان رد فعل طبيعى لحياتك مع جوزك.. وكنت اياميها بتعتبرينى واحد من الدنيا اللى بتهربى منها.. وكنت بافكرك بجوزك وبعمرك اللى ضاع منك.. ويوم ما هربت منى فى الجنينة بعد ما مات جوزك عرفت انى لازم استنى لغاية ما تجيلى..

وقالت وهى لا تزال ساهمة تنظر إلى بعيد.. الى لا شىء:

جيتلك علشان تعالجنى.. مش كده!

ايوه.. جيتى لانك لقيت نفسك تايهة مرة ثانية.. مش عارفة عمرك فين!

وكل الكلام اللى قلته ده يعتبر جزء من العلاج طبعا!

وسكت خالد، ونكس رأسه الى الارض برهة، ثم رفع رأسه كأنه لم يعد يصبر أكثر مما صبر، ونظر إليها قائلا، وشفتاه تخفقان بنبضات قلبه:

الكلام ده قلته علشان باحبك يا عليّه!

والتفتت إليه فى بغتة كأنها لا تصدق ما سمعته، وصاحت فى صوت هامس:

خالد!

ومد كفيه والتقط بهما كفيها وضغط عليهما بقوة كأنه يشعرها بقوة حبه وقال يناجيها:

انا باحبك من يوم ما شفتك يا عليّه.. من يوم ما كان عندك خمسين سنة.. وجوزك ما كانش بيكدب يوم ما قال اننا بنحب بعض.. الموت كشف عنه الحجاب وخلاه يعرف اللى كنا احنا نفسنا خايفين نعرفه.. كنت باحبك وانا مش دارى وكان بيتهيأ لى ان اهتمامى بيكى لمجرد انى دكتور وانت زوجة العيان.. وبعد ما مات جوزك فضلت صابر على حبى، مستنى اليوم اللى تعرفينى فيه.. كنت باعتبرك فى غيبوبة وكنت عارف انك حتفوقى منها، ولو كنت اتأخرت كمان يومين كنت جيت فوقتك بالعافية..

وكانت تطوف بعينيها فوق وجهه، كأنها لا تصدق عينيها.. وثقلت دموعها فوق رموشها حتى بدأت تنحدر فوق وجنتيها.. ثم ألقت برأسها فوق صدرها هامسة:

يا حبيبى..

ثم اطلقت دموعها حتى اجهشت بالبكاء..

ومد ذراعه وضمها إليه فى حنان واسند راسه فوق راسها، وانطلقت خصلات من شعرها تقبل شفتيه فى شوق وتزاحم كأنها وجدته بعد يأس طويل..

وهمس:

عليّه!

واستراحت فوق صدره، وابتسمت ودموعها فوق وجنتيها، ومد يدا رقيقة حانية يدفئها الحب ورفع وجهها إليه ونظر إليها طويلا وهى مستسلمة هادئة مغمضة العينين فى انتظار شىء تريده ولا تدريه، وتخافه وتتعجله..

ومال إليها..

واحست بشفتيه تحتضنان شفتيها..

واحست بنفسها وقد أصبحت مجرد شفتين..

والتهب وجهها حتى تبخرت الدموع من فوق وجنتيها..

وذابت حتى أصبحت كلها حبا..

كانت القبلة الأولى فى حياتها..

وكانت تكفى لتروى حياتها كلها..

وعندما افترقت شفتاه عن شفتيها.. نظرت إليه ثم نظرت إلى شفتيه كأنها تبحث فيهما عن سر الحياة.. ثم عادت

تغمض عينيها كأنها تريد ان تبقى محتضنة شفتيه بخيالها، ولم تتكلم حتى لا تقع كلماتها فوق موضع القبلة من شفتيها..

وقال وصوته كله حب:

انا مش عارف ازاى عشنا السنين دى كلها من غير بعض.

قالت فى صوت خفيض:

مين قال اننا كنا عايشين!

وامسك بكتفيها وقال وعلى شفتيه ابتسامة:

مهما عشنا مع بعض، فيه حاجة مش عايزك تنسيها ابدا..

خير..

انى دكتور..

انسى ازاى.. واذا ماكنتش دكتور كنت عرفتك ازاى؟!

والدكتور اللى حتعيشى معاه عيادته الساعة سابعة، ودلوقت السابعة سابعة وربع!

وضحكت عليّه:

ما انت كنت فى عيادة.. كنت بتعالجنى!

انت الوحيدة اللى بعالجلك بقلبى.. وحافضل طول عمرى اعالجك بالشكل ده.. مش حاسمح لك تخفى ابدا!

وقام والتقط حقيبته..

وقامت ووقفت قبالته لا تريد ان تنظر إليه..

وانحنى وقبلها على جانب من شفتيها، وقبلة كالهمسة الحلوة.

وقالت وهى تودعه:

ربنا معاك..

والتفت إليها قبل ان يخرج:

ما اظنش حتخرجى النهارده؟!

وهزت رأسـهـا عـلامـة النفى دون ان تتكلم، وشـبت على اطراف اصابعها وبين شفتيها ابتسامة، وقبلته بابتسامتها..

ووقفت تطل عليه حتى اختفى داخل المصعد، وعادت إلى غـرفـتـهـا لا تريد ان تفكر فى شىء، ولا تريد ان تسـرع فى مشيتها، أو تمد يدها إلى ما حوله.. كل ما تريده هو ان تحفظ ذكرى هذه الساعة، وان لا يشغلها شىء عن ذكراها، وكأنها لو اسرعت فى مشيتها قد يسقط شىء من لمساته، لو مدت يدها قد يهتز شىء من قبلته، ولو فكرت فقد يخدعها عنه عقلها..

وسارت إلى غرفتها والنور من حولها والملائكة تطوف بها.. وجلست على فراشها وهى بثيابها، لا تريد ان تبدلها بعد ان حملت آثار يديه وتشبعت بعطر انفاسه..

ودق جرس التليفون..

دق طويلا قـبل ان تمد يدا مـخـدرة، خـدرها الحب، وتلتـقط السماعة..

وسمعت صوت عادل..

وفزعت وافاقت من حلمها الجميل..

انه صوت الماضى.. ماضيها..

هل تستطيع ان تتخلص من ماضيها.. هل تستطيع ان تلقى السماعة فى وجهه؟

وسمعته يناديها فى الحاح:

آلو.. آلو.. آلو..

ولم تجب.. وعاد يلح:

آلو.. آلو..

واجابت.. وسمعته:

مالك .. الدكتور قالك ايه؟

قالت وهى لا تدرى ما تقول:

ولا حاجة..

ولا حاجة ازاى.. مالك يا عليّه؟!

قاللى انى عيانه.. ولازم استريح!

يعنى مش جاية؟!

لأ.. اورفوار!

وخيل إليـهـا ان النور قـد تبـدل إلى ظلام، وان الملائكة قـد هربت من حولها.. ولمحت بقعة سوداء فوق رداء الملاك الطاهر!

(٧)

وأصبحت تخاف من عادل.. تخاف من ماضيها!

ولم تسـتطع ان تقف فى وجـه هذا الماضى أو تحـذفـه من عمرها.. لم تكن تستطيع ان تطرده من بيتها اذا دخل أو تلقى السماعة فى وجهه اذا حادثها فى التليفون.. أو تصفعه وهو ينظر إليـهـا بابتـسامـتـه العابثـة الـهـازئة التى تكيدها وتثـير اعصابها.. انما كانت تتحايل عليه وهى تتـهرب منه.. كـانت تدعى المرض اذا دعاها للخروج مـعـه، وتدعى وجـود ضـيـوف حولـها حتى تقطع حديثه فى التليفون، وتبتسم له زورا وبهتانا

اذا التقت به.

لقد هربت منها شجاعتها التى قررت يوما ان تقابله بها.. وسألت نفسها أكثر من مرة: «لماذا لا تطرده وتنتهى منه.. لماذا لا تسيطر عليه بشخصيتها كما تعودت.. وما سر هذا الخوف؟» وعرفت السر.. انها لم تكن تخاف شيئا أو تخاف على شىء..

لم يكن لها ماض تخاف منه على حاضر، بل كانت بلا ماض ولا حاضر، وكانت الايام كأنها وقفت من حولها لا تتحرك بها. ثم تحركت بها الايام، وأصبح لها حاضر تخاف عليه، ولها ماض تكرهه.. أصبحت تخاف من ماضيها على حاضرها، تخاف منه على خالد، وعلى حبها..

ولكنها كانت تنسى هذا الماضى، وتنسى عادل، وتنسى خوفها.. كلما ضمها لقاء مع خالد..

كان يقابلها فى كل وقت لا يقابل فيه مرضاه.. فاذا ما افترقا جمعهما التليفون فى حديث لا ينتهى الا اذا تثاءب الفجر فوق شفاههما، حديث ليس له معنى الا انهما يتحادثان، وليس له رابط الا انه يسمع صوتها وهى تسمع صوته..

ووجدت عمرها كله فيه..

كانت تحس انها فى الخامسة عشرة عندما يذهبان الى صحراء الهرم ويستأجران حمارين يتسابقان عليهما، أو عندما يركبان سويا جملا فتحس انها ارتفعت معه ألى السماء فى قافلة تتجه بهما نحو الجنة، وتتعلق بكتفيه وهى خلف ظهره وخطوات الجمل تهزها فى عنف، فتضحك كما لم تضحك فى صباها قط، وتتطاير ضحكاتها مع خصلات شعرها فى

مسرى النسيم.

وكانت تحس انها فى العشرين، عندما يضمها بين ذراعيه، ويحتضن شفتيها بشفتيه، فيندلع منها الشباب حتى تنصهر وجنتاها، وتشتعل اطرافها، ويلتهب كل ما فيها.. فتضمه.. وتضمه اكثر.. لتحتمى به من النار!

وكانت تحس انها فى الاربعين عندما بدأت تهتم من جديد بادارة عزبتها وبأنباء المحاصيل، وعندما أصبح لزاما على ناظر العزبة ان يحدثها فى التليفون كلما جد جديد، وان يحضر الى القاهرة كل اسبوع ليقدم لها قائمة الحساب.

وكانت تحس انها فى الستين عندما تجلس وحيدة تحاول ان تسبق بخيالها الزمن، فترى نفسها عجوزا لا تزال تحتفظ بابتسامتها وطيبة قلبها ونشاطها، وترى بجانبها خالدا وقد هرم وأصبح يتوكأ على عصا وابتسامته لا تزال بين شفتيه، والحنان يطل من عينيه، ولا يزال يمد ذراعيه ليحتضنها إليه وكأنهما لم يلتقيا إلا اليوم، بينما صراخ ابنائهما واحفادهما يملأ من حولهما البيت، كأنهما يعيشان فى حفل دائم لا ينتهى منذ بدأ.. كانت تتخيل كل ذلك وتتلفت حولها كأنها ترى خالدا وهو يتوكأ على عصاه فعلا، ثم ترى اولادهما واحفادها.. وتبتسم ابتسامة هنيئة كأنها ضمنت المستقبل واطمأنت إليه.

وعرفت ان العمر لا يحتسب بالسنين، ولكنه يحتسب بالاحساس وان الاحساس لا يكتمل ولا ينضج الا بالحب!!

وعرف الناس كلهم الفصل الاخير من قصتها..

عرفوا انها احبت خالدا، وان خالدا احبها.. وبدأت الألسنة تطوف بهما وتؤدى مهمتها المعتادة فى مثل هذه المناسبات..

وكان اطول هذه الألسنة لسان حورية هانم، فقد صعب عليها ان عليّه لم تعد تتردد على بيتها، ولم تعد تدعوها إليها، وانها تتعمد ان تقطع ما بينهما حتى لم يعد بينهما شيء.. صعب عليها كل ذلك فاخذت تظلمها وتختلق عنها وعن خالد المواقف والقصص، وتشهر بها فى كل مجتمع..

ولم تسمع عليّه ولا خالد شيئا من كل ما يقوله الناس، وكأنهما يعيشان فى دنيا ليس فيها ناس.. ولم يعد احد يراهما، الا رؤية الصدف.. لم تعد عليّه تخرج إلى حفل أو تزور أو تزار، انما أصبحت ايامها انتظارا لا تمله ولا تسأمه الى ان ينتهى خالد من عمله فتلتقى به أو تعيش معه فوق اسلاك التليفون.. وأصبح خالد لا يرى فى غير عيادته أو فى غير زيارات مرضاه، فهو اما مع عليّه أو مع صوتها..

لم يسمعا شيئا من كلام الناس..

ولكن عادل سمع الكثير، وبدأ يثور فيه غرور الشباب، واعتقد فيما بينه وبين نفسه ان خالدا اعتدى على حق له.. وانه كان يرضى بان لا تكون عليّه له ما دامت ليست لأحد، اما اذا اصبحت لواحد فيجب ان يكون هو هذا الواحد.

وبدأ يشعر ان اسم عليّه فى المجتمعات أصبح يقترن باسم خالد لا باسمه، وأصبح لا يستطيع أن يتباهى بها امام بقية النساء ويجتذبهن إليه على حسابها، بل أصبح النساء ينظرن إليه كأنه فضلات حب، لا يشرفهن وجوده ولا يتباهين بصداقته.. وأصبح كلما ذهب إلى مقهى «بالميرا» استقبله اصدقاؤه بضحكات السخرية ويصيح فيه احدهم أو آخر: «مرحب يا دكتور»!

وافتعلت كل هذه الاحاسيس السوداء فى قلبه حتى احالته قطعة من الفحم فغادر المقهى ذات مساء بعد ان افرط فى الشراب، وسار مترنحا إلى بيتها.

وفتحت له عليّه الباب ثم تراجعت خطوة، وقد ارتسم الذعر فى عينيها، ثم وقفت فى مكانها كأنها تصده عن الدخول..

ودخل عادل واغلق الباب وراءه ثم قال بصوته المخمور:

وحشتينى يا عليّه.. قلت لما آجى اشوفك!

وقالت وهى لا تكاد تبتسم:

ده وقت يا عادل حد يزور فيه حد..

وابتسم عادل وقد خطا نحوها خطوة:

انا خلاص بقيت حد!

وقالت عليّه وكأنها تربت عليه حتى لا تنفجر ثورته:

انت طول عمرك صديق.. صديق عاقل وتخاف عليه..

وترنح الثمل:

اهى حكاية صديق دى هى اللى بتجننى منك.. صديق ايه يا اخواتى.. ويا ترى الدكتور خالد صديق برضه، ولا..

وتجهم وجه عليّه وانطلق الغضب فى عينيها حتى أصبحت كالقطة المتوحشة، وصرخت:

مالكش دعوة بالدكتور خالد.. على الاقل هو راجل احسن منك وما بيجيش يخبط عليّه بالليل وهو سكران..

وضحك عادل:

انا كمان راجل.. راجل ونص، ومتهيأ لى ان الراجل مش ممكن يكون صديق لست. صديق دى بايخة قوى يا عليّه،

وعيبى انى رضيت بحكاية الصداقة دى وطاوعتك فيها..

وخطا نحوها خطوة اخرى، فمدت ذراعها تبعده بها وهى تصرخ:

عادل..

فاكره الليلة اللى قبل ما نكون اصدقاء.. كنا برضة فى الأوضة دى، وفى الحتة اللى هناك دى.. الليلة دى بس اللى حسيت فيها انك بتاعتى وبعديها ضعت منى بتغفيلى.. من يوميها بدور عليكى مش لاقيكى..

واحست عليّه ان ماضيها كله قد انتصب امامها.. اسود جبارا يصفعها فى قسوة مجنونة، وتحملت الصفعات فى استكانة واستسلام كأنها تكفر بها عن ماضيها، وقالت فى رجاء:

اعمل معروف يا عادل بلاش الكلام ده.. سيبنى دلوقت من فضلك.. ربنا يهديك..

اسيبك لمين؟

لنفسى، لذلى، للهم اللى انا فيه..

انا هم يا عليّه؟!

قالت ودموعها فى عينيها:

لأ.. انت مالكش ذنب.. الذنب علىّ انا..

وبكت، وغطت وجهها بكفيها وهى تنتحب..

ووقف عادل مذهولا كأنه لا يدرى سببا لبكائها، وسكت برهة كأنه لا يصدق دموعها ولا يريد ان يستسلم لها، ثم رق صوته كأن الخمر قد تبخرت من فوق شفتيه، ووضع يدين

رقيقتين فوق كتفيها، وقال فى أسف:

انا مضايقك للدرجة دى يا عليّه؟!

ولم ترد واخذت تشهق وسط دموعها..

كفاية يا عليّه.. اذا كنت عايزانى انزل، مش حنزل الا لما تسكتى..

ورفعت إليه دموعها، قائلة وظل ابتسامة بدأ يطوف بشفتيها:

انا تعبانة يا عادل.. ما تتصورش تعبانة اد اية..

تحبى انده الدكتور؟!

لأ.. الدكتور كاتبلى على دوا منوم، حاخده دلوقت يمكن انام..

قال فى ضعف:

تصبحى على خير يا عليّه. انا آسف.. طول عمرى اغلط معاكى، وطول عمرك تسامحينى.. احلفلك انى مش حاغلط تانى ابدا.. وارجوك تصدقينى..

ولم يبق من بكائها الا آثار دموعها، واغتصبت من شفتيها ابتسامة ترد بها عليه وكأنها تحمد الله:

مسامحاك يا عادل.. وحافضل اسامحك على طول.. ربنا يسامحنا احنا الاتنين..

وقال عادل وهو يتجه الى الباب ورأسه الى الارض، كأنه افاق لنفسه ليرى جريمة ارتكبها:

تصبحى على خير..

وقالت وهى تغلق الباب وراءه:

تصبح على خير.. كتر خيرك!

واسندت ظهرها الى الباب وكأنها تلتقط دموعها، ثم اسرعت الى فراشها ودموعها تسبقها، وانخرطت من جديد فى البكاء..

ودق جرس التليفون..

وكانت تعلم انه خالد.. ولم ترد.. انما استمرت فى بكائها، وكلما دق جرس التليفون ارتفع نحيبها، كأن دقاته سياط تمزق جسدها، وتشبثت بوسادته، حتى لا تنطلق يدها وتلتقط السماعة وتحرم جسدها من السياط.

انها لا تستطيع ان تحادثه الآن.. انها احقر من ان تستحق قطرات من صوته فى اذنيها.. انها مدنسة.. انها امرأة خاطئة يلاحقها ماضيها..

ماذا تقول له..

وهل تقول كل شىء.. كل ما حدث..

وهل يبقى لها بعد ان تعترف له..

هل يظل على حبه بعد ان يعرف انها اخطأت.. وان خطيئتها كانت مع صبى صغير!

وسكت جرس التليفون بعد ان تعب من طول الالحاح.. وتوقفت عن بكائها برهة، ورفعت رأسها عن وسادتها والتفتت إلى التليفون كأنها تستحلفه ان يعود إلى الرنين، وان يعود الى ضربها بالسياط.. ثم سقطت منها رأسها فوق الوسادة، وعادت تبكى..

وقامت من فراشها مع الفجر.

وجمعت بعض ثيابها والقتها بلا ترتيب فى حقيبة كبيرة، ثم اغلقت الحقيبة وارتدت ثوبها فى عجلة كأنها تخشى ان يفوتها القطار، أو كأنها تخاف ان يقتحم عليها البيت شيطان.. ولم تقف امام المرآة الا ريثما جمعت شعرها فوق رأسها، ثم حملت الحقيبة بيدها، وخرجت من البيت واغلقت وراءها الباب بالمفتاح..

وذهبت إلى بيت امها..

ونظرت اليها امها من وراء غلالتها القاتمة فى دهشة، ثم القت نظرتها فوق الحقيبة الكبيرة التى تحملها.. ثم ابتسمت.. ابتسامة واسعة كأنها تنفض بها الصدأ الذى علا شفتيها من طول ما اطبقتهما..

ووقفت عليّه امامها حائرة مرتبكة لا تدرى ماذا تقول.. ثم حاولت ان تتكلم.. حاولت ان تقول أى شىء.. ولكن امها ضمتها الى صدرها فى لهفة ولم تترك لها مجالا للكلام..

وسارت بجانبها الى غرفتها التى قضت فيها طفولتها وصباها..

كانت الغرفة كما تركتها منذ خمسة عشر عاما، لم يتغير فيها شىء. نفس الاثاث ونفس الصور المعلقة على الجدران، حتى صور نجوم السينما..

واحست انها كانت فى رحلة طويلة شاقة وعادت لتستريح.. والقت بنفسها فوق فراشها واغمضت عينيها كأنها تحمد الله على سلامتها.. بينما امها تفتح الحقيبة وتخرج منها الثياب وتضعها داخل الدولاب.

وقفزت عليّه من فوق الفراش قائلة فى فرح:

ماما.. أنا حاقعد هنا على طول!

والتفتت إليها امها وابتسامتها فوق شفتيها:

طبعا يا بنتى.. انا قاعدة مستنياكى من يوم جوزك ما مات.. الحمد الله على السلامة!

وعادت عليّه تستلقى على الفراش، وقد احست ان كل شىء فيها قد هدأ.. روحها وعقلها وضميرها.. ثم مرت بها غمامة سوداء، وقطبت حاجبيها من فوق عينيها، واحست انها بدأت تتعذب كما تعذبت ليلة الأمس، فقامت مسرعة وخرجت من الغرفة وامها تلاحقها بنظرات صامتة، وامسكت بسماعة التليفون وحادثت خالد:

خالد.. انا باكلمك بدرى علشان اقولك انى عند ماما..

جيتى عندها من امبارح؟

لأ.. جيت لسه دلوقت..

امال كنت فين امبارح بالليل.. ضربتلك تليفون ما حدش رد!

عارفه.. ما كنتش قادرة ارد على التليفون..

كان عندك ضيوف؟

لأ..

امال ماردتيش ليه؟

لازم اشوفك علشان اقولك.. لازم اشوفك دلوقت حالا!

أنا رايح المستشفى دلوقت!

أنا فى حالة خطرة يا خالد.. حالتى اخطر من اى مريض فى المستشفى.. اعمل معروف ما تسبنيش لوحدى ولو دقيقة

واحدة..

مالك.. حصل اية؟!

ما اقدرش اقولك فى التليفون.. لازم اشوفك حالا!

حافوت عليكى..

حاتلقينى قدام الباب!

والقت سماعة التليفون، واسرعت الى امها ومن حولها زوبعة من خواطرها:

ماما.. انا نازلة دلوقت وجايه بعد نص ساعة!

مش تستنى لما تفطرى!

مش حاقدر..

ليه.. رايحة فين؟

ما تسألينيش.. وحياتى عندك ما تسألينيش!

وعادت الغلالة القاتمة تطوف بوجه الأم..

ونزلت عليّه، كما هى ودون ان تلتفت الى مرآتها.. ووقفت فى انتظار خالد ثم اخذت تروح وتغدو امام الباب، وعقلها ذاهل عنها، وامام عينيها صور مما ستقوله وما سيترتب عليه.

وجاء خالد فى سيارته..

وقفزت داخل السيارة، دون ان تحييه تحية الصباح، ولم تنظر إليه بل ظلت تنظر إلى امامها، كأنها لا تستطيع ان تواجهه بنظراتها، وقال خالد وهو يقود سيارته الى مكان هادىء وابتسامته الطيبة تملأ وجهه:

انت ما نمتيش امبارح؟

وقالت فى اقتضاب:

لأ..

ليه.. خير!

والتفتت إليه كأنها قررت ان تنفجر:

خالد.. لازم اقولك على حاجة.. انت متعرفش حاجات كتير عني.. فيه حاجات لازم تعرفها قبل ما تحبني..

وقال دون ان يسحب ابتسامته، ودون ان يبدو عليه انه يقدر خطورة الموقف:

انا حبيتك وخلاص..

انت حبيت واحدة فاكر انها ملاك.. فاكر انها طاهرة شريفة.. انا مش ملاك يا خالد.. انا مش..

ووضع خالد اصبعه فوق شفتيها، وقال وهو يقطر طيبة وحنانا:

انا حبيتك زى ما انت.. حبيتك وانت عيانة..

وصاحت عليه:

لازم تعرف كل اللى كنت عيانة بيه، وكل اللى حصل فى عياي علشان تعرف تعالجنى، وتعرف تحبنى..

قال وهو لا يزال هادئا:

بالعكس فيه حاجات كتير من مصلحة الدكتور انه يجهلها لانه لو عرفها حيتلخم وحتتعقد الدنيا قدامه، ويمكن يلخبط فى العلاج.. مش ساعات الواحد بطنه توجعه وياخد شربة يقوم يخف.. الواحد ده لو راح لدكتور حيفضل يكشف عليه ويحتار بين المصارين والمعدة والكبد والمصران الاعور، ويعالج فيه شهر وشهرين ويمكن بعد كده ما يخفش وتفضل بطنه توجعه

على طول.. انت مش سمعتى عن الفلاحين اللى لما الواحد منهم تجيله حمى يقوم ياكل فسيخ ويخف، اهو ده لو راح لدكتور حيتلخبط فيه ويفضل يقوله دى حمة شوكية، لا دى تيفود، لأ دى انلفونزا، ويمكن يموت فى ايديه.. وبعد ألف سنة عرفنا ان الفلاحين كانوا اشطر من الدكاترة وان الفسيخ ده هو البنسلين، وان الجهل نور.. جهل الفلاحين، وان الدكاترة لو كانوا عاقلين كان لازم يفضلوا جاهلين زى الفلاحين علشان يؤمنوا بأهمية الفسيخ فى علاج الحمى..

وقالت عليّه فى عصبية وكأنها لم تعد تحتمل:

ارجوك يا خالد بلاش فلسفة.. ده مش وقته.. لا انت فلاح ولا انا فلاحة.. وانا ما احبش الفسيخ ومش عايزاك تعالجنى بيه.. لازم تعرف كل حاجة عنى وتعالجنى بالبنسلين، اذا رضيت بعد كده انك تعالجنى..

قال خالد وهو يحاول ان يضحك:

يا ستى انا من المؤمنين بالفسيخ بالجهل.. حد شريكى.. كل اللى لك عندى انى اخففك!

قالت وهى على وشك البكاء:

خالد.. وحياتى عندك لازم تسمعنى، لازم تعرف كل حاجة.. اذا ما كنش علشان اريحك فعلشان اريح نفسى.. مش حاقدر اشوفك ولا اقابلك الا لما اعترف لك..

قال فى لهجة جدية:

اعتبرى انى اعرف عنك كل حاجة.. يمكن اكون عارف اكتر مما تتصورى.. انما مش عايزك انت تقولى حاجة.. بعد خمس سنين حاسمحلك تقولى كل اللى عايزه تقوليه..

قالت فى ضعف:

وحافضل تعبانه كده خمس سنين؟

تأكدى انك مش حتتعبى ابدا.. سيبى الموضوع ده ليّه أنا.. كل اللى اطلبه منك ان تفضلى تحبينى.

احبك بس!

ورفعت إليه عينين ملؤهما الحب.. وقال وهو يضمها إليه:

شوفى يا ستى.. المهم ان احنا نعلن خطبتنا النهارده.. ونتجوز بعد شهرين علشان اقدر آخد اجازة من المستشفى.. و...

وصاحت عليّه فى ذهول:

نتجوز؟!

انت لسه حتفكرى؟!

نتجوز النهارده؟

طبعا النهارده.. انت مش حاسه بالمشكلة الكبيرة اللى خلقتيها..

مشكلة ايه؟!

انت مش رحت عند ماما، وحتقعدى عندها؟

ايوه..

طيب واقابلك عندها ازاى واخرجك من البيت ازاى، اذا ما كناش مخطوبين.

اذا كنت عايزنى ارجع بيتى تانى، أنا..

لأ.. بالعكس، ده انا مستنى من زمان انك ترجعى تقعدى مع ماما..

ليه؟

لأن قعادك لوحدك كان غلط، وكنت متأكد انك مش ممكن تستمرى فى الغلط ده.

واحنت عليه رأسها كأنها خجلة من نفسها، وقالت فى صوت خافت:

صحيح.. كان غلط كبير!

وقال ضاحكا:

كل العيانين بيغلطوا!

ثم مد يده فى جيبه واخرج علبة صغيرة مكسوة بالقطيفة، وفتحها ليبدو فيها خاتم الخطوبة..

ونظرت عليّه فى دهشة وقالت كأنها طفلة يطير بها الفرح:

جبت الخاتم ده امتى؟

من يوم ما جيتلك البيت.. وقلت لك انى باحبك.. اقرى التاريخ اللى مكتوب عليه

وقرأت التاريخ:

ده تاريخ أول يوم عالجتنى فيه..

من يومها وأنا باعتبر نفسى خطيبك

والقت نفسها فوق صدره، ثم رفعت وجهها إليه وقبلته فى كل موضع من وجهه.

□□□

واعلنت خطوبة عليّه وخالد..

ومرت ايام عديدة لم تشعر بها عليّه من فرط سعادتها.. كانت تخرج مع خالد كل يوم ليطوفا بالحوانيت أو يذهبا الى

السينما، أو يتناولا العشاء فى احد الملاهى.. ولم تكن سعادتها فيما تراه فى الحوانيت أو فيما تشهده على شاشة السينما أو داخل الملهى، بل كانت سعادتها كلها فى صحبتها لخالد.. وكانت ترى بجانب كل ثوب تنتقيه رباط عنق لخالد، وفى كل فيلم تشهده نجما سينمائيا يشبه خالد، فاذا ما دخلت ملهى أو مطعما لم تر احدا يقاس بخالد.. ولم يقف طويلا امام ثوب أو امام قطعة من الاثاث، ولم تشعر بالحيرة وبحاجتها الى استعمال ذوقها كله، قدر ما وقفت واحتارت وهى تختار لخالد «البيجاما» و«الروب دى شامبر» اللذين ستهديهما له ليل الزفاف..

يوم واحد اهتزت سعادتها فيه..

كانت تسير فى شارع قصر النيل وذراعها فى ذراع خالد.. وفجأة لمحت عادل متجها نحوهما.. لمحت ماضيها..

وارتجفت وارتبكت خطواتها.. ولم تدر ماذا تفعل ولا ماذا تقول..

ولكن عادل، قبل ان يصل اليهما، نكس رأسه الى الارض ثم تشاغل عنهما وعبر الطريق الى الرصيف المقابل..

وتنهدت فى ارتياح..

وعرفت ان الزواج، ومجرد اعلانه، كاف ليحميها من ماضيها كله.. هذه الورقة الصغيرة التى يوقعها رجل معمم نظير جنيه أو اثنين، تستطيع ان تقيم منها حصنا يقف سدا بينها وبين كل ما تخافه..

وانتظمت خطوط سعادتها حتى رسمت من حولها جنة.. وحمدت الله..

وعندما فاجأها خالد يوما ووقف وراءها ووضع كفيه فوق عينيها، وقال مداعبا:

أنا مين؟

تظاهرت بالتخمين، واخذت تتحسس كفيه باصابعها، ثم لمست خاتم الخطوبة فى اصبعه، وقالت فى صوت كنغم الناى:

انت عمرى!

أشرف خائنة

ان فى الفنان قسوة لا غنى له عنها. قسوة الرسام عندما يضع امامه امرأة عارية ويكشف عن مفاتن جسدها بريشته، ثم يعرضها على الناس.. وقسوة الكاتب عندما يسرق سر فتاة أو سر رجل ويصيغه فى قصة ينشرها على العالم.. بل احيانا يقسو الفنان على نفسه فيستغل اعز عواطفه واعز الناس إليه ليشبع بهم شهوة قلمه أو شهوة ريشته..

وقد شعرت بهذه القسوة وأنا أكتب قصصى التى اعتدت ان اختار ابطالها من اشخاص واقعيين.. شعرت بها وحاولت دائما ان اكفر عنها.. وتماديت فى التكفير حتى جعلت من نفسى عبدا مأمورا لبعض البطلات وبعض الابطال الذين اغتصبت قصصهم وذبحتها بطرف قلمى.. ولكن ماذا يجدى التكفير بعد ان تقع الجريمة؟!

وها أنا ارتكب جريمة اخرى..

قصة.. اذبح فيها سر سيدة وثقت بى، وسر رجل احترمه واجله..

□□□

التقت به لقاء عابرا، وتحادثا حديثا عابرا، ثم لم تستطع ان تنتزع صورته من رأسها، بل احست بهذه الصورة تنحدر من امام عينيها يوما بعد يوم إلى ان تستقر فى قلبها..

انها زوجة..

وهو زوج..

كلاهما تزوج لانه كان لابد له ان يتزوج.. لم يكن للحب دخل فى زواج كل منهما، ورغم ذلك فقد كان كل منهما سعيدا فى زواجه.. هذه السعادة الهادئة التى تيسر لك حاجتك وتلفك بالسكينة والقناعة، ولكنها لا تفتح قلبك ولا تهز اعصابك..

إلى ان التقيا هذا اللقاء العابر، وتحادثا هذا الحديث العابر.

وكان يمكن ان يتكرر بينهما اللقاء، وان يتطور اللقاء إلى خلوة، وان تتطور الخلوة إلى كل شىء، فكلاهما ليس محافظا، ولا متعلقا باهداب الدين، والوسط الذى يعيشان فيه يتيح للزوجة ان تنفلت من زوجها، ويتيح للزوج ان ينفلت من زوجته.

ولكن اللقاء لم يتكرر، وظل حبهما بلا شىء..

لقد عادت بعد ان رأته وقد قررت ان تنساه..

وعاد وقد قرر ان ينساها..

ولكنها لم تستطع ولم يستطع

وبعد ليل طويل ارق، امسكت بسماعة التليفون واتصلت به فى مكتبه.. وسمعت صوته يناديها: «آلو.. آلو» وسرى الصوت فى اعصابها حتى وصل الى قلبها فخلعه وقذف به الى حلقها فانحبس صوتها وارتعشت يدها فالقت بسماعة التليفون الى

مكانها وهى مبهورة الانفاس..

وظل يناديها حتى بعد ان سمع صوت السماعة تلقى الى مكانها آلو.. آلو.. ولم يكن يدرى من ينادى، ولم يدر سر اصراره على النداء وهو الرجل الذى لم يكن يتحمل محادثة تليفونية خارج دائرة عمله، ولم يكن يتحمل جرس تليفونه عندما يدق خطأ الا ثائرا لاعنا.. لم يكن يدرى انه ينادى املا يحاول ان ينكره على نفسه، وينادى حبا حاول ان يخمده فى قلبه..

وعاد الليل يطول بها ويؤرقها.. وخارت مرة ثانية وامسكت بسماعة التليفون، وعندما احست بصوته يسرى فى اعصابها ويخلع قلبها ويقذف به الى حلقها، قالت فى صوت ضعيف كأنه الحفيف:

آلو..

مين؟

أنا..

ولم يسألها: من انت، بل سكت برهة كأنه يرتوى بعد ظمأ طويل، وقال فى صوت حنون وقد اقتربت شفتاه من السماعة وكأنه يشرب من صوتها:

لقد انتظرتك طويلا..

انت ايضا؟!

حاولت الا انتظرك فلم استطع..

أنا ايضا..

لقد كنت ابحث عنك فى كل شارع امر به وفى كل مجتمع اسعى إليه، وكنت انكر على عينى ان تبحثا عنك.. وانكر على

نفسى ان اسعى وراءك.. ولكن الانكار لم يجد فى شيئا.. انى اتعذب بك..

انى اتعذب بك..

تعالى نفر من العذاب..

إلى اين؟

وسكت قليلا وربما تنبه فى هذه اللحظة إلى صورة زوجته وولديه الموضوعة فوق مكتبه، ثم قال فى يأس..

لست ادرى.. ان العذاب يحيط بى حتى الافق!

وسكتت وكأنها تلتقط دموعها برموش عينيها، ثم قالت:

قل لى انى لم اخطىء اذ حادثتك..

كلانا لم يخطىء.. فأقل حق للمعذبين ان يشكوا العذاب.

قل اننا لن نخطىء ابدا.

لن نخطىء..

وتركت سماعة التليفون تسقط من يدها، ثم انكفأت على وجهها تبكى.. وتركته ساهما واجما يبحث بعينيه فى فضاء غرفته وكأنه يتبع قلبه وهو يطير منه..

وحادثته فى اليوم التالى، واليوم الذى يليه.. وأصبح حديثهما لقاء يتكرر كل صباح وكل مساء، ثم امر بتركيب آلة تليفون خاصة فى مكتبه لتحادثه خلالها وكأنه يضن على مكان لقائهما من ان يشغله انسان آخر..

وكان لقاء يستعد له وتستعد له، فكان لا يذهب إلى مكتبه الا وهو حليق الذقن مرتب الشعر وقد اختار خير حلله، وانتقى رباط عنقه بعناية، ووضع المنديل فى جيب سترته ودلاه باناقة،

ثم يجلس إلى مكتبه وهو فى حالة عصبية.. ينظر إلى التليفون بين الحين والحين، ثم يضغط على السماعة وهى فى مكانها مرة ومرتين ليتأكد انها فى موضعها تماما، وقد يرفعها الى اذنه ليتأكد ان التليفون ليس به عطب.. فاذا ما دق الرنين اخيرا التقط السماعة فى لهفة وغاب فى حديثه معها ساعة أو بعض ساعة، حتى اذا ما انتهى موعده بدأ يفكر فى عمله..

وكانت هى ايضا لا تحادثه الا وهى فى اتم زينتها، حتى الكورسيه والشراب والحذاء كانت تضعها جميعا قبل ان تلتقى به عبر الاسلاك.. وكانت اذا ما حادثته فى الصباح ارتدت ثوبا صباحيا، واذا ما حادثته فى المساء ارتدت ثوبا مسائيا.. ثم كانت تصف له نفسها وما ترتديه، ويصف لها نفسه وما يرتديه، ثم يتشاكيان، ويتضاحكان، ويتحادثان فى كل شىء..

كان حديثهما حبا خالصا، ولم يكونا يغفلان فيه الا موضوعين:

زوجها، وزوجته.. ثم املهما فى اللقاء، فقد كان حريصا على وعده الا يطالبها بلقاء، وكانت عنيدة فى حبها فلم تحله من وعده..

كانا روحين يلتقيان فى الفضاء فوق اسلاك التليفون.. ولكن روحاهما كانتا تعودان احيانا الى جسديهما فيحس كل منهما بشفتيه تختلجان وكأنهما تبحثان عن شفتى الآخر، ويحس كل منهما بصدره يتلوى وكأنه ينادى صدر الاخر، فكانا يغمضان اعينهما ويقترب كل منهما بشفتيه من سماعة التليفون ويميل عليها بصدره ثم يغيبان فى قبلة من الوهم.

وكان الخيال يستبد بهما احيانا اثناء احاديثهما التليفونية،

حتى كان يلقى بنفسه بين ذراعيها، وتلقى بنفسها بين ذراعيه، وتطوف بشفتيها فوق وجهه وتمسح وجنتيه بوجنتيها، وتداعب شعره باصابعها، بينما يعصرها فى صدره ويسكب انفاسه فى اذنيها ويطوف بكفه المحمومة فوق كتفيها..

وكانت تقول له فى سماعة التليفون، وهى لا تزال مغمضة العينين منتشية بخيالها، وصوتها يكاد يذوب فى نشوتها:

يا لك من رجل.. انك تكاد تحطم ضلوعى.

فيقول والنشوة تحشرج صوته:

يا احب من لى.. دعينى اقبلك.. اين شفتاك!

وكل ذلك فى التليفون!

وأكثر من ذلك..

لقد سافر زوجها إلى اوروبا ليغيب اسابيع، بينما سافرت زوجته إلى الاسكندرية لتغيب اياما، فاصبحا يلتقيان طول الليل.

كان يرتدى البيجاما ويجلس فى سريره وبجانبه التليفون فى انتظارها..

وكانت ترتدى ثياب نومها، وتتعطر، ثم تحادثه..

ويطول الحديث حتى مطلع الفجر، ثم تقول له:

اغمض عينيك، فانى اريد ان اخلع الروب ديشامبر..

ويغمض عينيه فعلا..

وتقول:

اظن يجب ان ننام..

ويدخل تحت الغطاء وتدخل تحت غطائها، ثم تصرخ

ضاحكة:

ايه ده.. رجليك زى الثلج!

وينامان وكل منهما محتضن الآخر بخياله، بينما سماعة التليفون مرفوعة من مكانها بجانب رأسه.. وبجانب راسها..

ويستيقظ على صوتها فى سماعة التليفون وهى تقول له:

صباح الخير!

فيرد عليها بقبلة..

ثم يغيب عنها ريثما يغتسل، ويعود إليها لتنتقى له الحلة التى يرتديها، ورباط العنق الذى يربطه، ثم تنتقى له طعام افطاره، ثم تقبله مودعة قبل ان يذهب الى مكتبه..

وقد مضى على هذا الخيال ثمانية شهور، لم يلتقيا خلالها ابدا، بل كان كل منهما اذا علم ان الآخر فى مكان حرص الا يذهب إليه، ورغم ذلك كان كل منهما يسير فى الطريق وعيناه فى وسط رأسه يبحث عن الآخر عسى ان تجمعه به الصدفة فى نظرة..

لم يلتقيا إلى اليوم لقاء حبيبين، ولا لقاء صدفة.. ولا ادرى ان كانا سيكتفيان بخيالهما ام سيفران من العذاب الى مكان لقاء..

ولكن هل هى خائنة لزوجها، حتى اليوم؟

وهل هو خائن لزوجته؟

انها اشرف خائنة!

وهو اشرف خائن!

الفهرس :

الصفحة

■ أين عمرى ٥

■ أشرف خائنة ١٣٥

رقم الايداع: ٩٧/٨٦٤١

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-08-0656-0